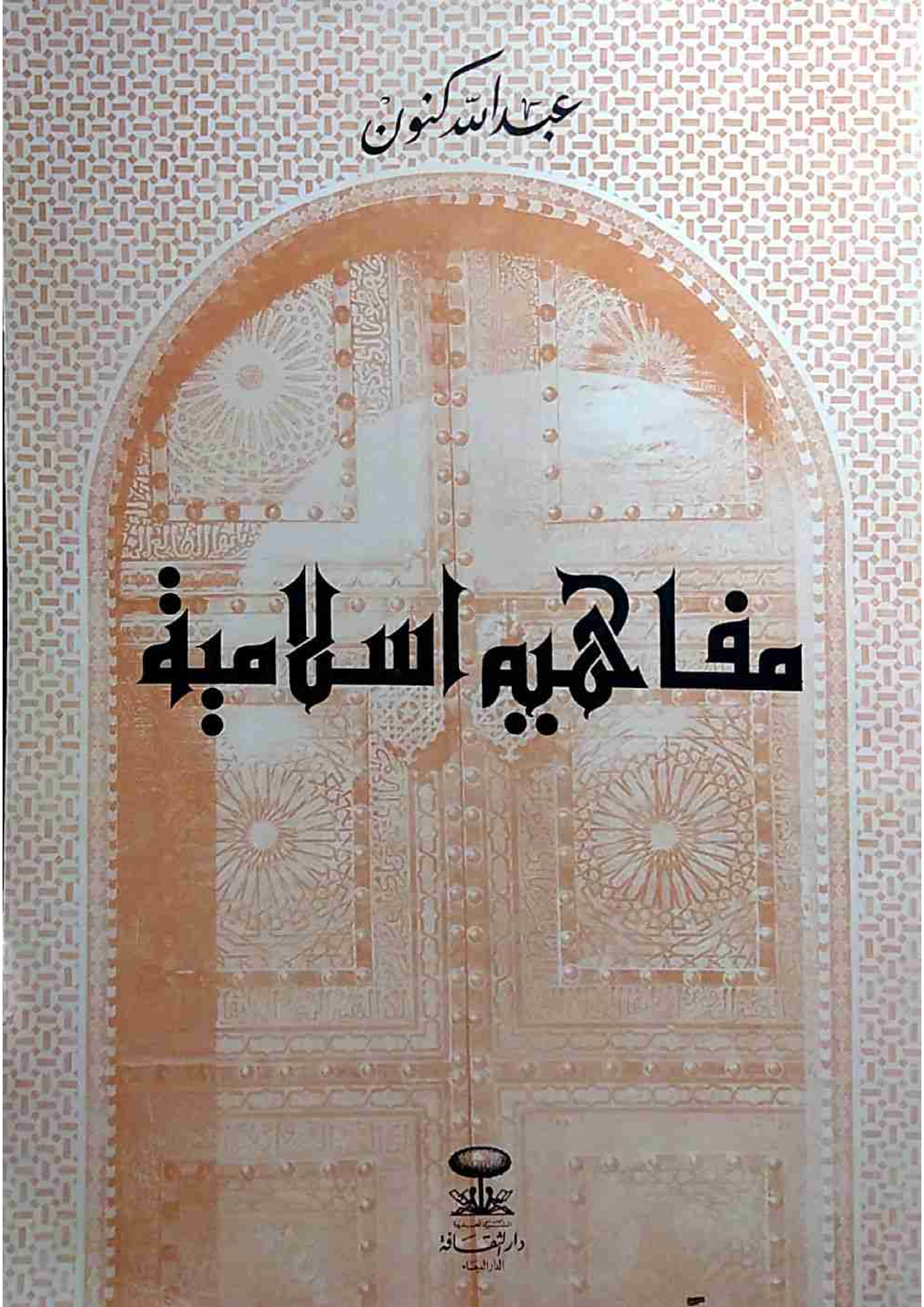

عبد الله كنون
مفاهيم إسلامية
دار الثقافة
الدار البيضاء

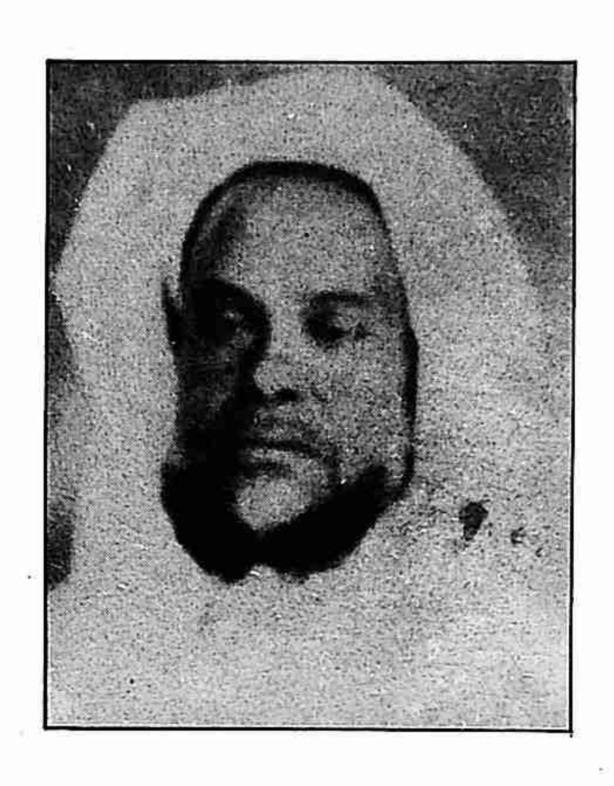
مفاهيم اسلامية

عبد الله كنون

مفاهيم إسلامية



32 – 34 شارع فكتور هيكو
الهاتف 30.23.75 / 30.76.44
ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب



الإهداء

إلى روح والدي الذي علمني

الاعتزاز بالإسلام ..

عبد الله بن عبد الصمد كنون

طبعة 1405 - 1984

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مما يلاحظ أن كل حركة تحريرية قامت في العالم الاسلامي كان أساسها الدين . لا يستثنى من ذلك حركة مصطفى كمال الذي كم أصدر من منشورات تهيب بالمسلمين لنصرته ، وكم تمسح بالسيد السنوسي لالتماس بركته ؛ ولكنه ما فتىء أن تنكر للإسلام والمسلمين بعد انتصاره ، كما يفعل غيره من المتزعمين في الأقطار الاسلامية الأخرى ، حينما يتمكنون من أمرهم ، ولا يبقون بحاجة إلى تملق الشعور الديني الذي هو الرابطة الجامعة بين مسلمي المشرق والمغرب .

ويتساءل المخلصون في كل بلد اسلامي : هل إن هؤلاء الزعماء كانوا منافقين في تظاهرهم بنصرة الدين عند خوض المعارك التحريرية ، ثم أظهروا ما بهم من عداوة له . أم إن الفكرة الدينية ، وبالأخص في دين الإسلام ، لم تعد تطابق مقتضيات العصر والتطور الذي طرأ على الحياة الإنسانية بسبب تقدم العلم وانتشار الحريات؟.

ونحن لا يمكننا أن نتهم أحداً بالنفاق ، ولا سيما الذين أبلوا البلاء الحسن في رفع سيطرة العدو عن بلاد الإسلام . ولكن الذي يحق أن يقال ، هو أن هؤلاء القادة لم يستطيعوا التوفيق بين التعاليم الاسلامية وروح العصر ؛ فذهب فريق منهم إلى إنكارها ، وزعم أن القرن العشرين لا يحتمل فكرة التدين بحال ، وذهب فريق آخر إلى تأويلها وقلب مفاهيمها لتساير العصر والمدنية الحديثة .

والفريق الأول مقلد لكثير من المفكرين والكتاب الغربيين الذين درجوا على إنكار الدين ، ودعوى مناقضته للعلم ، من لدن عصر النهضة إلى الآن ، وهو إنما تثقف بثقافة الغرب ، وقد أعفى نفسه من التفكير الجدّي في هذه المسائل . فلا جرم أن يقع تحت تأثير التقليد في هذا الغلط الفظيع ، ذلك أن الغربيين إذا انتقدوا الدين فإنما ينتقدون نظام الكهنوت وسيطرة الكنيسة على الأفكار . وهذا إذا كان في المسيحية ، فإن من المسلم به أنه ليس في الاسلام كهنوت ، ولا رجال دين يتحكمون في عقول الناس . والمسلمون إنما تقدموا تقدمهم المدهش في العلوم والمعارف لما كانوا متمسكين بتعاليم دينهم ، قائمين على شعائره في القرون الثلاثة الأولى التي قال عنها الرسول ﷺ خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . بعكس المسيحيين الذين لم يتقدموا تقدمهم المشهود إلا حينما فصلوا الدين عن الدولة ، وانطلقوا متحررين من قيود الكنيسة وعبث رجال الكهنوت .

وليس معنَى هذا أننا ننال من المسيحية ، وهي باعتقادنا دين سماوي مقدس . ولكنا نقرّر حقيقة واقعية ، وهي أن الدين لا يمنع مطلقاً من التطور إلا إذا تطور هو ودخلته التكييفات البشرية التي تبتعد به عن سماحته الأصلية . فالمسيحية التي منعت أتباعها من ارتقاء سلم الحضارة ليست هي دين المسيح عليه السلام ، والإسلام الذي قعد بأهله عن مجاراة سنن الكون في العصور المتأخرة إنما هو إسلام الطوائف والشيع المختلفة .

وهذا مالم يستطع إدراكه الفريق الأول من الحكام المسيطرين على بلاد الاسلام . وأما الفريق الثاني الذي يجنح إلى التأويل وقلب المفاهيم ، فإنه أولئك المتزعمة الذين تثقفوا أيضاً بثقافة الغرب ، وسمعوا أن الاسلام دين متطور صالح لكل زمان ومكان ، من غير أن يكون لهم المام بحقائقه ، ولا معرفة بأصوله . وقد استولى عليهم غرور الثقافة وغرور الحكم فسولت لهم أنفسهم أن باستطاعتهم أن يجددوا في الدين ليثبتوا هذه الصلاحية . فركبوا رؤوسهم ، وصاروا يحطِّمون أحكام الشرع ، ويحلون ما حرَّم الله ، على نحو ما ذكرنا في كثير من المقالات الآتية .

ولعل أول ما يبدأون به من هذا التجديد المقلوب ، هو اصطناع قوانين الغربيين واستبدالها بأحكام الشرع الشريف . وكان آباؤنا عند غلبة العدو واستئساده في العصور المتأخرة لم يعودوا يستطيعون فرض أحكام الشريعة على الأجانب المتساكنين معهم ، فعمدوا تحت ضغط الدول الأجنبية إلى التسامح باعطاء بعض الامتيازات

القضائية إلى هؤلاء الأجانب . ولما جاء هؤلاء الزعماء الجدد وأرادوا إلغاء هذه الامتيازات تحقيقاً لمدلول الاستقلال ، وجدوا من تلك الدول نفس التعصُّب القديم واملاء الارادة تماماً ، كما كان الأمر على عهد آبائنا في العصور المتأخرة . والقوة التي كانت تعوز آباءنا لعدم الخضوع ، ما زالت تعوزنا حتَّى الآن . فلم يكن من قادتنا إلا أن يتبنوا القوانين التي يتحاكم بها أولئك الأجانب في بلادهم وينقلونا ، أحببنا أم كَرِهنا ، إلى حكم الأجنبي ليقولوا إنهم ألغوا الامتيازات القضائية ؛ وما دروا أنهم حطموا كبرياءنا وضحوا أمةً بأسرها من أجل طمأنينة حفنة من الجاليات الأجنبية ، في حين أن آباءنا الذين لم يكونوا يعرفون لغات أجنبية ، ولا درسوا قانوناً دولياً ، ولا اطلعوا على نظريات الحكم الجديدة وسيادة الشعوب ، وكونها مصدر التشريع ، لم يزيدوا على أن ضحوا ببضع مئات من المواطنين ، وفي بعض الأحوال الخاصة ، تقتضي أن يطبق عليهم القانون الأجنبي ، فأحرزوا بذلك كيانهم وصانوا سيادتهم ، وكانوا دائماً على نية الجهاد لانقاذ الموقف ، ورد الأمور إلى نصابها .

فإذا كان هناك من تجديد للمفاهيم الاسلامية ، وتطبيق لدعوة الاسلام ، فإنه يتمثل أولاً في هذه المحافظة المتبصرة على القواعد والأصول ، ثم في التقديم اللائق بسمو هذه القواعد والأصول وعظمتها والمتكيف بروح العصر ومقتضيات التطور الحديث ، لا في التعفية على الآثار والمعالم وطمس المنارات والصُّوَى . على أنه لابد من الأخذ والعطاء ، وعطاؤنا لا يكون إلا من هذا الرصيد الروحي الانساني الذي نتوفر عليه ، كفاء ما نأخذه من هذه الحضارة الغربية المادية ، فإذا أتلفناه فستبقى يدنا هي السفلى إلى الأبد .

ونحن إذ ندعو المسلمين إلى التمسك بدينهم إنما ندعوهم إلى إحياء السنن التي كانت سبب رقي أسلافهم واماتة البدع التي أخرت خلفهم المتخلف ، وبذلك نحدوهم إلى التقدم المنشود من غير أن ينسلخوا من دينهم الحق ، كما فعل الغربيون الذين يقتدون بهم ، إذ انسلخوا من المسيحية المزيفة ، ولم يعوضوها باتباع الصراط المستقيم .

والله ولي التوفيق .

للتجديد في الدّين
مفهوم شرعي محدود

كثرت دعوى التجديد في العصر الحديث كثرة لا مزيد عليها ؛ فمن تجديد في الدين ، إلى تجديد في الأدب ، إلى تجديد في أساليب الحياة ، وربما في الحياة نفسها . والذي يهمنا منها في هذه المقالة هو التجديد في الدين لأنه بقدر ما كان ضرورة لازمة لتدعيم كيان الوطن الإسلامي وبعث روح الحفاظ في نفوس المسلمين ، بقدر ما تشعبت فيه الأنظار واختلفت المذاهب حتّى أصبح الأمر فوضى ، وكل يدعي وصلاً بليلى . وكانت النتيجة ان تحطم السد الذي طالما حال بين المسلمين وبين طغيان التيارات الأجنبية — من فكرية واجتماعية وسياسية — عليهم ، فصاروا يتخبطون في مشاكلها ، ويجنون ثمارها وهم لا يهتدون إلى طريق النجاة سبيلا .

والتجديد في سائر مطالب الحياة ان كان فلسفة تطورية لا معدى عنها لضمان بقاء الحضارة الانسانية وازدهارها فإنه في الدين فكرة أصيلة من جملة تعاليم الإسلام التي جاء بها الرسول الأعظم ﷺ وهي تستند إلى الحديث الشريف الذي رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة مرفوعا : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» . فهو بمنطوق الحديث ومفهومه خطة من صميم أمر الدين ، بحيث لو لم تقتضها طبيعة الحياة لكان الوضع الذي بني عليه الاسلام كفيلاً بتحقيقها . ولعل الحديث أن يكون دعوة إلى القيام بهذه المهمة وتكليفاً لمن فيه أهلية من المسلمين بتجديد الدين كلما مضى جيل وأتى جيل يكون بحاجة إلى هذا التجديد .

وقد حدد الحديث وقت ظهور المجدد بما لا مجال للتأويل فيه ، وهو رأس كل مائة سنة ، أي عند انقراض الراسخين في العلم بالسنن والأحكام من أهل القرن السابق ، وافتقار أهل القرن اللاحق إلى من يؤدي لهم الأمانة ، ويأخذ بيدهم حتّى لا يزيغوا عن دينهم القويم . ومع هذا التوقيت الواضح فقد قال العلماء بظهور

المجدد في كل وقت وآن ، وان اتفقوا على أن المجدد الأول هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل ، وكان على رأس المائة الثانية كما لا يخفى . فلبقاء الحديث على ظاهره ينبغي حمله على المجدد الأعظم الذي لا يمتنع أن يأتي بعده علماء عاملون ناسجون على منواله ، كل في ناحيته وفي باب من أبواب العمل الديني المفتقر إلى التجديد ، وذلك تطبيقاً لقوله ﷺ فيما رواه جماعة من الأئمة : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتَّى يأتي أمر الله » ، وأرى أن لو اصطلح على تسمية هؤلاء المجددين الفرعيين بالمصلحين مثلا ، وعملهم بالإصلاح تمييزاً لهم من المجددين وعملهم لكان أولى .

وإذا كان هذا ما قيل في وقت ظهور المجدد ، وقد بينه الحديث أتم بيان ، فلا جرم ان تختلف الأقوال في معنَى التجديد والمراد به ، وهو مالم يتعرض له الحديث تصريحاً ولا تلويحاً ، اتكالاً على ما يفهم منه بالوعي الفطري والحس السليم . وأغلب الأقوال في ذلك ما يزعم أنه يعم أهل كل فن ، حتَّى النحو واللغة ، مع أن موضوع الحديث إنما هو التجديد في الدين ، فلا ينبغي أن يتجاوز به عنه ، وإن كانت الأعمال بالنيات .

ومن الأقوال خلافهم في المجدد : هل يشترط أن يكون مجتهداً أم لا؟ والمشهور أنه لا يشترط فيه ذلك ، ولكن لا لأن وظيفة المجتهد أعظم من وظيفة المجدد كما يشعر به كلامهم ، وانما لأن المجدد لا يهمه استنباط الأحكام وتفريع المسائل بقدر ما يهمه المحافظة على شعائر الدين وتقرير شرائعه ، وهذا بطبيعة الحال لا يمنعه أن يكون مجتهداً ، وعلى كل فالمجتهد مهمته فقهية أكثر منها اصلاحية بعكس المجدد ، وأيضاً فالمجتهد غير مقيد بوقت من الأوقات بخلاف المجدد الذي لا يظهر الا على رأس القرن ، والمجتهدون كثيرون والمجددون قليلون ولو على القول بتعددهم وعدم توقيتهم ، فبان بهذا ان الاجتهاد الذي هو مهمة كل فقيه غير التجديد الذي هو أوسع دائرة وأبلغ أثراً في إحياء معالم الدين وان كانا يتلاقيان أحياناً .

ومن أجمع العبارات في التجديد قول العلقمي في شرح الجامع الصغير : «انه إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما ، وهذا يعني أن يكون المجدد من أولي الأمر كعمر بن عبد العزيز ، ليتأتى له حمل الناس على اتباع طريق الشرع وامتثال الأوامر واجتناب النواهي . على أن ذلك ليس بلازم ، فالمجدد وهو داعية ديني من الطراز الأول لابد أن يكون معه من وسائل الاقناع وطرق التبليغ ما

يغني عن النفوذ والسلطة ، وكم من مذاهب سياسية واجتماعية انتشرت في العالم قديما وحديثا بفضل تجند أصحابها للتبشير بها والدعاية لها . لذلك فنحن نرى أن أحسن ما يفسر به التجديد هو ما جاء في حديث للنبي ﷺ يحدد مهمة علماء الدين الأولى التي تجعل منهم حراساً أمناء على ميراثه وميراث النبيئين من قبله وهو قوله : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ، فهذا في نظرنا هو عمل المجدد ، وهو مفهوم التجديد الذي تلتقي عنده أنظار العلماء كافة ، وان اختلفوا في التعبير عنه ، وقد حصره الحديث في غايات ثلاث :

الأولى — رد النصوص التي يحرفها الغلاة من أهل البدع إلى أصلها ، وفي ذلك رجوع بالدين إلى سماحته ونضارته ، ونفي لما ألصق به من بدع وأهواء .

الثانية — إبطال الدعاوى الكاذبة وفضح أصحابها الذين يلبسون الحق بالباطل ، وينتحلون أغراض المصلحين الدينيين ، والاصلاح والدين بريئان منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وفي هذا تنزيه لدعوة الاسلام واظهار لها بالمظهر اللائق بها من السمو والكمال .

الثالثة — دحض التأويلات الفاسدة التي يتخذها الجهال بحكمة التشريع ذريعة إلى نقض أحكام الشرع الحنيف ، كقول بعضهم : «إن الخمر إنما تحرم في المناطق الحارة حيث نزل القرآن» ، وقول آخرين في الربا الحرام : «إنما هو الفاحش منه» ، وكقولهم في تقنين الزنا : «إنه محافظة على الصحة العامة» ، وفي إباحة بيع المحرمات : «انها تنمية لاقتصاد البلاد» إلى غير ذلك مما دَحْضُهُ مُنافحةٌ عن شريعة الاسلام وضمان لبقائها نوراً وهدى للناس .

فهذه الغايات الثلاث كلها تتمثل في عمل المجدد الذي يراد أن يعود الدين على يده غضّاً طرياً كما أنزل ، وهي كما نرى تتلاقى وجميع أقوال العلماء في التجديد . ولذلك كان هذا الحديث خير شرح لمعناه وتحديد لمفهومه على حد قولهم خير ما يفسر به القرآن : الوارد ، وبكل اعتبار إذا نحن أمعنا النظر في مهمة المجدد نجدها ترجع إلى معنًى واحد هو المحافظة على جوهر الدين من أن يطرأ عليه تغيير ، ذلك لأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات ، فكل زيادة فيه أو نقص منه ينافي ما وضع له فضلا عن اقتضائه نسبة الجهل لواضعه ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

وإذن ، فان من يبدّل شرع الاسلام بغيره من القوانين أحرى أن يعد في الملحدين من أن يعد في المجددين . ومن يتبجح باسم التجديد ، وهو أكثر الناس تنكراً حتَّى لاسم الدين ، تشبهاً بالحكومات العلمانيَّة هو ممن غره الشيطان والهوى ، إن لم يكن يستغفل الناس ويستجهلهم ، وقلت الحكومات العلمانية ، ولم أقل الأمم أو الشعوب ، لأنه ليس في الأمم ولا في الشعوب علماني ، وإنما العلمانية فلسفة مادية تفرضها الحكومات الماسونية على البلاد المستسلمة .

ولعل قائلا يقول ، أليس المجدد الأول هو الذي قال : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور؟ ونحن نجيب نعم . ولكنه لم يقل تبدل أحكام الشرع كلما استثقلها قوم ...وقد غبر المسلمون مدى عصور وهم لا ينفذون حد القطع في السارق ، ولا حد الرجم في الزاني المحصن ، بل ولا حد الجلد في شارب الخمر ؛ ولكنهم لم يُلغوا هذه الحدود قانونياً البتة . وإلى الأمس القريب كان القضاة الشرعيون فيما كان يسمى بالمنطقة الخليفيّة يحكمون بهذه الحدود على مستوجبيها ، ثم يحيلون الحكم على السلطة التنفيذية التي تحتفظ به لمانع الوقت ، وهو حل على كل حال . أما ما يعنيه عمر بن عبد العزيز بكلمته تلك ، وهو وجوب استنباط الأحكام الجارية على قواعد الشرع لما يحدث من أقضية لم تكن في الزمن السابق ، فهذا ما لا ينازع فيه أحد ، وهو مهمة الفقهاء المجتهدين مطلقاً أو المجتهدين في مذهب من المذاهب المتبوعة ، وأين منه اقتباس الأحكام من قوانين الحكومات العلمانية التي تعارض على خط مستقيم السياسة الشرعية في الدين الاسلامي؟.

إن من أعظم الظلم أن تحكم أمة بشرع أمة أخرى ، ولو كانت من جنسها وفي مستواها الثقافي والحضاري وعلى نفس العقيدة والدين ، وفي اقليم جغرافي مماثل ، فكيف إذا اختلفتا في كل هذه المقومات؟ وذلك لأن قوانين الحكم في أية أمة يجب أن تستمد من عناصر نفسيتها وتاريخها ودينها وحياتها الاقتصادية ومركزها الجغرافي وثقافتها العامة . ومهما خولف ذلك فإن الانسجام ينعدم بين الحاكم والمحكوم ، ويعم الظلم والظلام ...وهذا باستثناء القانون السماوي الذي يصلح قطعا لكل زمان ومكان ، فيا أسفي لمن يستبدله أو يستبدل منه القوانين الوضعية الخاصة والموقوتة طبعا .

هذا وقد ذكرنا عمر بن عبد العزيز مراراً . وهو الخليفة الأموي الذي وقع الإجماع على أنه المجدد الأول ، وعد من الخلفاء الراشدين ، وقيل فيه ثالث

العمرين ، وذلك لما أحيى من سنة وأمات من بدعة ، وأظهر من عدل بعد عموم الجور ، ورد من اعتبار إلى المثل الاسلامية والأخلاق الدينية حتَّى قال فيه كثير الشاعر :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريـاً ولم تـتـبـع مـقـالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي فعلت ، فأضحَى رَاضياً كل مسلم

ودرج العلماء على ذكر المجددين بعده ، فقلما اتفقوا على واحد مثلما اتفقوا عليه ، ويهمنا أن نعرف المجدد في عصرنا الحديث ، وهو في نظرنا السيد جمال الدين الأفغاني ؛ فإن هذا الرجل الذي بعثه الله على رأس المائة الحالية وجد الأمة الإسلامية تغط في نوم عميق والعدو قد أحاط بها من كل جهة ، وقد ضؤلت أمامه واستخذت ، فسيطر على مقدراتها وحكم عليها بالاضمحلال . فكنت لا ترى إلا قطراً إسلامياً إثر آخر يقع فريسة للاستعمار الأوربي ، ولا من يحرّك ساكنا من ملايين المسلمين الأربعة أو الخمسة مائة حتَّى صدق فيهم قول النبي ﷺ : «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على القصعة» ، قيل أمن قلة بنا يومئذ يارسول الله؟ قال : «لا ، أنتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل الحديث» . فلما رأى جمال الدين المسلمين على هذه الحالة صاح فيهم صيحته المدوية التي أيقظت النائم ونبهت الغافل ، ولم يكن له هم إلا الاتصال بملوك الاسلام وأمرائه وزعمائه ، في مصر وتركيا والهند داعياً لهم إلى الاتحاد ومجابهة الخطر الداهم بقوة الايمان . وكان يرى أن صلاح أحوال المسلمين بصلاح حال حكامهم ، ومن كلامه المشهور في ذلك «لا يصلح الشرق إلا مستبد عادل» وهو بذلك يدعو إلى نظام الحكم الاسلامي الذي يعتمد السلطة والعدل مع شورى أهل الحل والعقد ، منابذاً آراء الساسة الأتراك الذين كانوا مشغوفين بالنظم الغربية ، وخاصة منها الديموقراطية ، فلما تمكنوا من اصطناعها طاحت بهم وبدولتهم وهي ما زالت تشيل بدول الشرق الاسلامي التي انخدَعت ببريقها الموهوم إلى اليوم .

ومات السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله وترك البلاد الاسلامية تضطرم بالثورة على الاستعمار ، وقد خلفه في الاصلاح الديني خاصة تلميذه الشيخ محمد عبده ، وان كان قد مال إلى التأويل في بعض المسائل ففتح فرجة لم تسد بعد ، وخلف الشيخ محمد عبده السيد محمد رشيد رضا .

وأما في الاصلاح السياسي فقد كان السيد عبد الرحمن الكواكبي يسير على اثر جمال الدين ، وإن لم يقو قوته . وكان الأمير شكيب أرسلان خير خليفة له في النهضة السياسية والتجول في الأقطار ودعوة المسلمين إلى التكتل وتوحيد الجهود لاسترجاع مجدهم الغابر .

وما دمنا نذكر العاملين في حقل التجديد بعد المجدد الأعظم السيد جمال الدين ، كما فعل العلماء في الكلام على المجددين الفرعيين في القرون السابقة ، فلا ننسَ جندياً من جنود الدفاع عن الفكرة الدينية بعامة ، والدعوة الإسلامية بخاصة ، وهو الأستاذ محمد فريد وجدي الذي أهله إيمانه وتفهمه للثقافة الاسلامية لرئاسة تحرير مجلة الأزهر ، وان كتابه : (الإسلام دين عام خالد) ليعد من أهم الكتب التي وضعت في العصر الحديث للتعريف بالاسلام وتمجيد رسالته السامية ، فضلاً عن كتبه الأخرى كالاسلام في عصر العلم ، والمرأة المسلمة الذي صحح به اغلاط قاسم أمين وغير هذه .

ولم نذكر أحداً من مصلحي المغرب لقصور عملهم على بلادهم ، بخلاف هؤلاء فإن تأثيرهم عم البلاد الاسلامية جمعاء . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

*

المسلمون كلهم رِجَال دِين

وليس في الإِسلامِ . «إكليروس»

من الأوهام الشائعة بين الشباب الذي لم يستكمل ثقافته بمعرفة دينه ولغته ، اطلاقه على الفقهاء الذين هم العلماء بشريعة الاسلام لقب رجال الدين ، تقليداً لما يعرف من اصطلاحات الأجانب الذين لهم رجال دين حقيقة ، وهم هيئة الكهنوت المعروفون بالاكليروس تعريباً للفظ الأسباني Ecléros والأجانب محقون في تسمية هذه الهيئة برجال الدين ، لأنهم فصلوا الدين عن الدولة وعن الحياة المدنية : إما رسمياً وإما واقعياً ، فأقبلوا على شؤونهم الخاصة ، وتركوا أمر الدين لهؤلاء الرجال يحفظون تعاليمه ويمارسون شعائره .

أما في الإسلام فلا يصح تبني هذا النظام ، لأن كل المسلمين مطالبون بمعرفة الضروري من أحكام دينهم معرفة يقينية ، وهذه المعرفة هي أول الواجبات على المكلف الذي هو العاقل البالغ ، وبدونها يكون مقلداً مختلفاً في صحة إيمانه ، لأن الإيمان في الاسلام لا يكون عن تقليد . ثم ان كل المسلمين مطالبون بتأدية شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة لمن ملك ما يزكى ، وحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ، فضلا عن بقية الواجبات والسنن الأخرى مما يتعلق بالسلوك والحياة الاجتماعية والمعاملات بعامة . ومن أنكر هذه الشعائر والواجبات فهو في حكم الاسلام كافر ، ومن عطلها وان كان يقر بوجوبها فهو من العصاة الذين يستوجبون العقاب الصارم على ما قرر في محله .

ثم ان كل مسلم مسلم مدعو للدفاع عن كيان الدين وتبليغ ما يعرف منه إلى أهله وولده وغيرهم من الناس بحكم قوله ﷺ «ليبلغ الشاهد منكم الغائب» ، وهو عام في كل من عرف مسألة من مسائل الدين وان لم يكن من أهل العلم بأحكامه جملة وتفصيلا ، يدل له قوله ﷺ في الحديث الآخر «رب مبلغ أوعى من سامع» وفي رواية أخرى للحديث «رب حامل فقه ليس بفقيه».

فإذن كيف يصح لمسلم أن يتفصى من هذه الواجبات كلها ويلقي مسؤوليتها على الفقهاء وحدهم ، ثم يطلق عليهم لقباً ليس من الاسلام في شيء ، هو لقب رجال الدين ، كأنه يبرر بذلك تخليه عن مسؤوليته في هذا الصدد ، وهي مسؤولية مشتركة بين جميع المسلمين لا يقوم فيها واحد مقام الآخر أبداً ، وهل يفهم من تخصيص هذا اللقب بالفقهاء أنه ليس رجل دين بل دنيا فقط ، وأن الفقهاء ليسوا رجال دنيا بل دين فقط؟ ان هذا مفهوم خاطىء أقل ما يلزم عليه تبرء صاحبه من الدين ، ومن تبرأ من الدين كفر. وأيضاً فإن الفقهاء رجال دنيا كما هم رجال دين ، عليهم كباقي المسلمين أن يعملوا لاستصلاح أحوالهم المعاشية والمعادية فيبيعوا ويشتروا ويفلحوا الأرض ويتولوا المناصب الحكومية ويغزوا في سبيل الله. وقد كان الذي فتح جزيرة صقلية فقيهاً ، هو القاضي أسد بن الفرات.

وقد ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ «لا رهبانية في الاسلام» وهو نص صريح في الحكم على هذا النظام الكهنوتي الذي يريد هؤلاء المثقفون ثقافة ناقصة أن يلصقوه بالإسلام وليس هو منه في قبيل ولا دبير.

وقد يتساءل القارىء وما الفرق حينئذ بين علماء الدين وغيرهم من عموم المسلمين. والجواب أن علماء الدين يختصون ببيان شرائعه للناس ، والحكم بها ، ورد الشبه والمطاعن التي توجه إلى عقائده وأحكامه ، وبذلك أخذ الله العهد عليهم في قوله : «لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا تَكْتُمونَه» ، كما أخذ العهد على العموم أن يسألوا العلماء عما جهلوه من أمر دينهم بقوله : «فاسألوا أَهْلَ الذِّكرِ إن كنتُم لا تعلَمونَ» فالفرق هو مزيد العلم بالدين عند الفقهاء ، وأما العمل والغيرة والنصرة فالكل فيها سواء.

وقد كان الباحثون من الغربيين أكثر دقة وأعرف بالاسلام من بعض أبنائه — ويا للأسف — حيث نجدهم يطلقون على الفقهاء الذين هم علماء الدين العارفون بأحكامه وشريعته لقب دكاترة الاسلام Les docteurs de l'Islam لا رجال الدين ، لأنهم يعلمون أن كل المسلمين رجال دين وليس في الاسلام إكليروس.

مَنْ هو التقلِيدي

وهم آخر ينتشر بين الشباب المثقف ثقافة ناقصة ، بسبب جهله لدينه وعدم معرفته بلغته ، ذلك أنه يعتقد أن التقليد هو اتباع سنة الأسلاف والتمسك بهدي الجدود . ومن ثم فهو يطلق وصف تقليدي على كل عمل أو شخص تتجلى فيه مظاهر المحافظة على أثر الأقدمين ، والأخذ بمذهب من مذاهبهم في التفكير والحياة ، في حين يعتبر أن تقليده هو لـلأجانب في أساليب عيشهم والتكلم بلغتهم ، وربما في التحالل من ربقة التدين ، تحرراً وتقدماً ورقياً . وبمقتضى هذه المقابلة يكون التقليد استعباداً وتأخراً وانحطاطاً ، وتكون هذه الأوصاف لازمة للشخص التقليدي وللعمل الذي ينهج نهجاً تقليدياً سواء كان عملا أدبياً أو فنياً أو غير ذلك .

وهذا من عكس القضية ، فإن المعروف أن التقليد هو اعتناق آراء الغير بدون دليل في المعنويات ، ومحاكاة ظاهرية لأعماله في الحسيات . وقصة الغراب الذي ذهب يحكي مشية الحمامة فلم يحسنها وأضاع مشيته مثل مضروب في هذا الأمر ، وهي وإن كانت تورد في الأمور المحسوسة ، إلا أن ذيلها ينسحب حتى على الأمور المعنوية ، فإن المقلد فيها لا يصدر عن فكر واع ، فهو مثل الغراب العديم التفكير مطلقاً .

والظاهرة الاجتماعية المعروفة التي تحدث عنها ابن خلدون ، وهي كون المغلوب مولعا بتقليد الغالب ، تعكس في كثير من وقائعها التي لاحظها المفكر الاجتماعي في البيئة الأندلسية ، في عهد التراجع ، ماهو واقع عندنا اليوم وتفسر بطريقة تطبيقية معنَى التقليد في المجال الاجتماعي تفسيراً يتوافق ومدلوله اللغوي العام .

ولعل مصدر الوهم عند هؤلاء السادة هو المفردة الفرنسية «طراديسيونيل» وترجمتها بالتقليدي ، والثقافة الأجنبية لها تأثير لا ينكر على عقلية الفرد ، خصوصاً إذا انفردت أو كانت هي الغالبة . فغير بدع إذا كان أصحابنا يتصورون أنهم الأصلاء وغيرهم المقلد ، لأنهم يفكرون بعقلية الأجنبي صاحب ثقافتهم ، ولا يرون أنهم فيها أبناء غَيَّة فهم أحرى أن يوصفوا بالتقليديين . على أن ترجمة تلك المفردة بالتقليدي ليست ضربة لازب ، بل ربما كان معناها أوفق بالمحافظ والاتِّباعي وما في

معنًى ذلك ، وبهذا الاعتبار يسقط مدلول التقليد من مفاهيم هذه الكلمة ولا يبقى لوصف التقليدي مناسبة في هذا المقام .

ونرجع إلى أصل الفكرة فنتساءل من هو الأولى بوصف التقليدي ؟ أهو الشخص المتمسك بتراث أمته الثقافي والحضاري ، أم هو الشخص الذي نبذ هذا التراث وأخذ ببعض مظاهر الحضارة والثقافة الأجنبيتين؟.

إننا لا نعادي شيئا من الاقتباس من الحضارات الأخرى نطعم به حضارتنا ، ولا نعارض في أيٍّ استمداد من الثقافات الأجنبية لتلقيح ثقافتنا ، ولكن الذي لا نقبله بحال هو أن يهمل الشاب تراثه القومي من ثقافة وحضارة اهمالاً كلياً ، ويندمج في قومية غير قوميته ، متظاهراً بمظاهرها ، متعاطياً في بعض الأحيان حتَّى لما هو من نقائصها ، ثم ينحى باللائمة على من لم يفعل فعله ، وبقي متمسكا بتراثه القومي ، فيسميه تقليدياً وينبزه بما هو أحق به منه من أوصاف الذم على حد قول العرب في أمثالها : «رمتني بدائها وانسلت». ولقد كتب بعضهم مرة في جريدة يومية كلمة بعنوان : «قاض شرعي ينبذ الكسوة التقليدية ويرتدي بذلة القضاء» يعني هذا «الطوج» الذي لا يخفي أن أصله مسيحي ، فلم أدر ممن أتعجب ، من القاضي أم من الكاتب أم من الجريدة الذين أصفقت كلمتهم جميعاً على أن الكسوة «المنبوذة» تقليدية وأن البذلة المقتبسة أي المقلدة ليست تقليدية بل أصيلة ...

ومن هذا القبيل قول بعضهم في الشعر الجاري على أوزان العرب وعروض الخليل أنه شعر تقليدي، في حين يسمى الشعر الذي يصطنع الأساليب الغربية والذي هو أحق بوصف التقليدي شعراً حراً وجديداً ... فهل هناك قلب للحقائق أكثر من هذا ، واستعمال للألفاظ في غير معناها الوضعي ؟ أنا لا أنكر هذا النوع من الشعر ، إذا كان له عمود يحتفظ به ، ولم أتعرض لمثال البذلة على تفاهته للتنديد به ، وإنما أردت أن أنبه على سخافة العقلية التي تريد أن تنال من الأشياء ذات القيمة الرفيعة بتسميتها بعكس أسمائها ، وان ترفع من شأن أشياء باطلاق أسماء شريفة عليها ربما كانت لا تستحقها ، فهل بقولنا للأسود إنه أبيض يصير كذلك ؟.

وبعد فنحن من أبعد الناس عن التقليد ، لأن ديننا لم يحارب شيئاً كما حارب التقليد ، ولنا حضارة أصيلة وتراث ثقافي ضخم نعتز بهما وندعو إلى المحافظة عليهما ، وهذا ليس من التقليد في شيء ، وإنما التقليد هذا الذي يمارسه أصحابنا ، فمن ياترى هو التقليدي ؟..

في المحيطِ الإسلامِي

نكسة ومَسْخ

لم تصب الدعوة الاسلامية في عصر من العصور بمثل النكسة التي أصيبت بها في هذا العصر ، ولم تمسخ قيمها ومثلها كما مسخها العصريون من دعاة الاصلاح والتجديد ، ولعل قول البوصيري رحمه الله :

(ومن شدة الظهور الخفاء) لا ينطبق على حالة مثلما ينطبق على الحالة السوأى التي يتخبط فيها الإسلام اليوم ، وأهله يظنون أنه في حالة انبعاث وتجدد .

وذلك أنه منذ الانطلاقة الإسلامية الأولى ، أوانَ الهجرة النبوية وما صحبها من انتصارات ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد بني أمية ، ثم في العصر العباسي ، وقد استبحرت الحضارة الاسلامية ورسخ كعب المسلمين في العلوم والفنون ، اصطدمت هذه الدعوة بمعارضات شديدة ، وتعرضت قيمها ومثلها لمناقضات عديدة ، من طرف اليهود والمنافقين والخوارج والمعتزلة والفلاسفة والباطنية والزنادقة والملاحدة عموماً ؛ فلم تنهزم ولم تستسلم بل ثبتت ثبات الجبال ، وتصدت لكل معارضة بالنقض ، ولكل مناقضة بالإبطال ، وسيطرت على المواقف كلها ، وأملت كلمتها التي كان الانفصال عليها دائماً ، ولم تحور ولم تغير إلا من الوسائل والأساليب التي كان مقتضى الحال وعامل التطور يقضيان بتحويرها وتغييرها . أما الأصول والدعائم التي تنبني عليها وترتكز إليها فلم يدخلها تبديل ولا تحويل ، وبقيت هي هي ، تصاول الزمان والأحداث وتتحدى من يعمل لتقويضها وتحطيمها ، مصداقا لقوله عز وجل : «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون».

أما في العهد النبوي فلا نحتاج أن نضرب الأمثال للأزمات التي مرت بها هذه الدعوة الكريمة ، وما قام به الرسول ﷺ والوحي يشد أزره ، من جهاد مثالي في

سبيل إعلاء كلمتها والأدالة لها من الكَلِم ، حتّى انتصر الحق وزهق الباطل ، ولم يبق في الجزيرة العربية من يرفع رأساً بمحادة أو نفاق ، إن ذلك كان هو واجب صاحب الرسالة ومهمته العظمَى . وفي القرآن العظيم حديث مسهب عن هذه الفترة من تاريخ الدعوة وعمل النبي عليه السلام وإغيائه في التضحية لنصرة الدين وظهوره وبلوغه إلى أطراف البلاد ، فلْيَتَملّ من شاء بتلاوة بعض الآيات البينات من ذلك الحديث المعجب المعجز .

وأما على عهد الخلفاء الراشدين ، فإن حادث امتناع العرب من أداة الزكاة واعتبارهم إياها أتاوة تتنافى مع ما ألفوه من حياة حرة متحللة من كل الالتزامات والقيود ، كان هو الامتحان الأول الذي مُحِّصت به الدعوة الإسلامية في هذا العهد ، ولكنها بفضل الموقف الحازم الذي وقفه الخليفة الأول من ذلك الحادث ، خرجت من الامتحان قوية منتصرة كأشد ما تكون القوة ، وأعظم ما يكون الانتصار ، فقد قرر أبو بكر الصديق قتال القوم ، وخالفه الصحابة كلهم حتّى عمر بن الخطاب المعروف بشدة البأس وقوة الشكيمة ، وقال له أتقاتلهم على الشاة والبعير؟ فقال : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه .. ولو لم يقف أبو بكر رضي الله عنه هذا الموقف لدخل أمر الزكاة في خبر كان ، ولتبعها بعد ذلك سائر قواعد الاسلام ، ولما كان يوجد الآن من هذا الدين اسم ولا رسم .

ان الأمر لم يكن يتعلق بتعطيل شعيرة من شعائر الدين فقط . ولكنه يتعلق أيضاً بحرمان الفقراء والمحتاجين مما فرض الله لهم في أموال الأغنياء من هذه الزكاة ، فهي حرب ضد الرأسمالية المتعنتة التي حسبت أن لها وحدها الحق في أن تعيش وتستمتع ، ونسيت أن هناك طبقة من الناس محرومة من ضروريات العيش ، فيجب رِفدُها ومواساتها حتّى تنتعش وترتاش .

ومن المفارقات الغريبة أن الحادث الثاني الذي كان حريا ان يحدث ثورة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ضد المفاهيم الإسلامية ، والذي تعرضت فيه دعوة الاسلام لامتحان جديد ، كان قد طلع قرنه بين الأوساط الفقيرة ووجد فيها ميداناً خصباً لبذر هذه المبادىء الاشتراكية المتطرفة التي تنازع المتمولين أموالهم والملاك أملاكهم وتهدر جميع الفوارق بين طبقات المجتمع التي أقرتها السنة والأعراف المتوارثة ، وكان زعيم هذا المبدأ هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي كان

يقف في ميادين دمشق وسبلها العامة فيقول : «بشر الكانزين بنار يحمى عليها ما كنزوا فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم» وكان يمشي هو وعبده وعليهما حُلّتان متماثلتان وإذا أكلا أكلا معاً طعاماً واحداً، فكان يلتف حوله لسماع أقواله جماهير غفيرة من الطبقات الشعبية الفقيرة وخاصة من مُسلمة الأمصار التي لم تكن قد تمكنت منها الدعوة الاسلامية تمكنا كاملاً . وكانت تضاف إليه أقوال ويزاد في مذهبه ما ليس منه ، فتضايق منه معاوية ــ وكان والياً على الشام ــ وخاف من هذه الدعوة أن تنقلب إلى تجربة يقوم بها الموالي والعامة والموتورون من أهل الأقطار المفتوحة ، فشكاه إلى عثمان الذي دعاه إلى المدينة ، ولما تبين له خطر الدعوة التي يقوم بها نفاه إلى قرية منعزلة يقال لها الربذة حيث أمن خطره .

وهذا الموقف الصارم من الخليفة الثالث ، لم يكن لينقذ نظام الحكم في الاسلام وشريعته المطهرة غيره ، فإن من مسلمات هذه الشريعة الاعتراف بحق الملكية الشخصية ، وعدم مشاعية الأموال بل وجوب حمايتها حماية الأرواح الا ما كان من مال الدولة ، فإنه الذي يحق أن ينال منه الجميع ، كل على حسب مقامه ، يضاف إليه مال الزكاة الذي يختص به الفقراء والمحتاجون دون سواهم ، وفيما عدا ذلك فإن الناس جميعاً مدعوُّون إلى تنمية ثرواتهم بالوسائل المشروعة ، ولهم أن يتوسعوا في طرق العيش ما شاءوا إذا أدوا ما عليهم من الواجبات ، ولذلك استنكر الصحابة مذهب أبي ذر هذا ، وكان ابن عمر (رض) يقول : «كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولو كان تحت سبع أرضين» نعم في ميدان البر والاحسان ، لا حد للتنافس ولا غاية للبذل ، والمسلمون مدعوون إلى ضرب الأرقام القياسية في هذا الصدد ، ولكن على طريق الترغيب لا على طريق الإلزام .

وما ورد في الكتاب والسنة من الحض على الانفاق في سبيل الله ، ومواساة الضعفاء والتنفير من البخل والامساك هو مما لا يجهله أحد ، وهو الذي حمله أبو ذر (رض) محمل العزيمة في حين أن غيره من الصحابة ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، وبقية العشرة المبشرين بالجنة، لم يكونوا يرون رأيه، وكان فيهم الممولون جدا كالزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف . على أنهم حين الدعوة إلى البذل والعطاء كانوا يتسابقون الى ارضاء الله ورسوله ، فأبو بكر الصديق أحضر مرة كل ماله ، وقال له النبي ﷺ ما تركت لأولادك؟ قال تركت لهم الله ورسوله ، وعمر بن الخطاب أحضر نصف ماله ، وعثمان بن عفان الذي وقف بجانب

الرأسماليين ، لا يكاد يُحصى ما دفع من مال في سبيل نصرة الدعوة الاسلامية ، حتَّى انه جهز جيش العسرة كله من ماله ، وقال فيه النبي ﷺ «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم».

أريد أن أقول إن الاسلام الذي أعطى لكل ذي حق حقه ، وفرق بين الرأسمالية المتعنتة والاشتراكية المتطرفة وجد في خليفتيه الراشدين خير مدافع عن شريعته وقيمه ومثله ، فما هددت الطبقة الغنية بحرمان الفقراء من حقهم حتَّى وقف خليفته الأول بجنب الفقراء مناصراً لهم على الأغنياء ، وما ان نجم خطر تهديد الطبقة الفقيرة للأغنياء وطمعها في احتياز أموالهم بدون حق ، حتَّى وقف خليفته الثالث بجنب الأغنياء يحميهم من ثورة الفقراء ، ويضع حداً لمذهب لو كان انتصر لقلب الأوضاع في المجتمع الاسلامي رأساً على عقب ، ونشر الفوضَى ورد الحكم إلى أيدي جماعة من المشردين والدخلاء .

ويتعرض الاسلام في أيام الخليفة المظلوم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لخطر أشد وأعنف من كل ما تقدم ، وهو خطر الخوارج الذي لم يكن يتهدد النظام المالي للدولة فحسب ، ولكنه كان يتهدد الكيان السياسي والاجتماعي والعَقَدي للمسلمين ؛ فلم يتردد علي ابن أبي طالب في شن الغارة عليهم وقتالهم مدة أيام خلافته ، حتَّى قضَى شهيد الدفاع عن حوزة الدين وجمع كلمة المسلمين . والعجب ممن يوافق على قتال مانعي الزكاة ، ولا يوافق على قتال مفرقي كلمة المسلمين ، والنبي ﷺ يقول : «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما » ومن أحدثوا في الدين مذاهب وآراء لم يأت بها كتاب ولا سنة ، والنبي ﷺ يقول : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

ولئن مات علي ولم يتمكن من القضاء على هذه الجرائم الفتاكة عملاً ، فقد قضَى عليها نظراً ، إذ ما فتىء المسلمون بعده يشنون عليها الحروب ويقصونها من صعيد العمل الاسلامي ، فما ارتفعت لها مع أهل السنة والجماعة راية ، ولا تم لها في دول الخلافة الاسلامية أمر قط .

وقد نشأ عن خلاف الخوارج هذا مذاهب وفرق ضالة كالقدرية والجبرية والمرجئة ، ثم تبلورت هذه المذاهب فيما سمي بالمعتزلة ، ولكن هذه الفرق لم تلجأ في نشر مذاهبها إلى القتال بالسلاح ، فقام علماء الملة وأئمة السنة بالرد عليها وحماية

بيضة الاسلام مما كانوا يوجهونه إليها من السهام المسمومة، فكانوا يكبتونها ويردون كيدها في نحورها مما جعلها مغمورة دائماً، إلا في فترات قليلة، كانت تحتمي فيها ببعض أولي الأمر والسلطان، فتظهر ظهوراً كاسفاً ثم تنطمس ...والمهم هو أنه قُضي عليها قضاء مبرماً، فلم يعد لها ذكر الا في كتب التاريخ والملل والنحل، ولم يبق لأصحابها وجود منذ عدة قرون مع ما كانت بلغته من الانتشار، وما استهوت من رجال السلطة والنفوذ الذين أخذوا بضبعها وشدوا أزرها زمناً؛ ولكنها الغيرة التي حملت قادة الفكر الاسلامي على خوض المعارك ضدها، وشنها حرباً كلامية، كثيراً ما ألحقت بهم ضرراً بليغاً وأذىً كبيراً، فتحملوه بصبر وثبات حتّى حقت الحقائق وزالت الشكوك والريب. إن هذه الغيرة على الدين التي كانت لأسلافنا المقدسين هي التي أطاحت بتلك البدع والآراء الفاسدة، وطوحت بها إلى غير رجعة. فبقيت الدعوة الإسلامية بقيمها ومثلها هي السائدة في العالم الإسلامي والمتحكمة في مصيره ومقدراته.

وسيطول بنا الكلام إذا أردنا تتبع ما جرى في هذه المعارك من جدال عنيف، وما كانت تنطوى عليه آراء تلك الفرق من خطر على العقيدة الإسلامية، ومن انحراف وزيغ عما جاء به الرسول ﷺ وما كان عليه سلف الأمة الصالح من هدى حسن في أمور الدنيا والدين، فليرجع من يريد التوسع في ذلك إلى مظانه. وكفانا هنا أننا خلصنا بالنتيجة المطلوبة، وهي تسجيل الموقف الذي وقفه علماؤنا من دعاة الضلال والإلحاد، والنصر الحاسم الذي كتب لهم في هذا الموقف العظيم. ولا حاجة بي إلى الإلمام بفتنة القرامطة والحروب الصليبية وهجوم التتار، فإن هذه حوادث ذات صبغة سياسية وعسكرية أكثر منها دينية، وإن كانت قد هزت العالم الإسلامي هزة عنيفة قضت على كثير من معالم حضارته، وأوقفت تطوره زمنا طويلا ..على أنها تشبه ما تعرضت له بلاد الاسلام في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن، من حملات الغزو والاكتساح الأوربية، مع فارق واحد هو من الأهمية بمكان وهو موضوع هذا المقال.

ذلك أن العالم الاسلامي بعد غفوته الطويلة، لما فتح عينيه على جيوش الاحتلال الأجنبي تجوس خلال دياره، ورأى رايات العدو ترفرف في سماء بلاده، والحكم النافذ في أرضه هو حكم المستعمر الدخيل الذي تسند وجوده الحراب فعلاً والحماية أو الوصاية أو ما أشبهها اسماً، لم يطق صبراً على هذا الوضع الزري الذي

أصبح فيه ولم يستطع أن يطأطىء رأسه أمام الفاتح الجديد ، وهو الذي دحر من قبله كل من سولت له نفسه السيطرة عليه أو المساس بسيادته وسلطانه ، فثار ثورة عارمة على السلطات الاستعمارية ، مهما اختلفت أسماؤها وتعددت الدول الأجنبية التي تنتمي إليها ، وحطم قواتها الغاشمة ، وعطل أجهزتها وأعتدتها الهائلة ، ولم يهدأ له بال ولا قرّ له قرار حتّى رمى بالغزاة الجدد الى البحر ، وسجله انتصاراً باهراً على حماته المزعومين وأوصيائه المفروضين وجميع دول الاستعمار التي أصفقت كلمتها عليه من أوربيين وأميركان . وكان هذا الانتصار دليلاً على قوة إيمانه وصدق يقينه ، إذ لا مجال هناك للمقارنة بين مُعدات العدوّ الحربية وآلاته الجهنمية ، وما كان عليه المسلمون من ضعف مادي وتجرد من كل سلاح وعتاد . فهم انما انتصروا بفضل حماستهم الدينية وروحهم الإسلامية التي لا تعرف الا العز ، ولا ترضَى بالذل أبداً «ولِلَّهِ العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين» .

وكل هذا معروف ، ومما لا ينازع فيه أحد ، والعالم الإسلامي إنما جرى فيه على المعهود منه في إباء الضيم وعدم الخضوع لغير حكم خالقه وباريه . ولكن تصفية العهد الاستعماري ونبذ السيطرة الأجنبية لم يكونا تامين ، وقد غزا المجتمع الإسلامي مع جيوش الاحتلال علل وأمراض في صور مذاهب ، وأفكار تمكنت من نفوس شبابه وباضت وفرخت في عقول مثقفيه ، فلم يمكنهم التخلص منها وان تخلصت بلادهم من حكم الأجنبي وسلطته النافذة . إنها مخلفات الاستعمار ورواسبه في كل ركن وحقل ومجال ؛ في نظام الحكم ، في التعليم ، في الاقتصاد ، في مظاهر الحياة البيتية والاجتماعية والدولية ، في النشاط العام الذي يقوم به الفرد والجماعة والدولة كل يوم ، تغلغلت جذورها وبسقت فروعها ، فصار من الصعب اقتلاعها ولو تضافرت الجهود على ذلك ، إلا أن ينقرض هذا الجيل المؤمن تقليداً بالغرب وحضارته ، والكافر تقليداً بكل ما عدا ذلك .

لقد سد الاعجاب بالثقافة الغربية منافذ التفكير على هذا الجيل ، وقاده ذلك إلى التقليد الأعمى لجميع مظاهر الحياة عند الغربيين ، وليس للاعجاب غير المحدود والتقليد الأعمى نتيجة الا العجز وتسليم الارادة للجهة التي هي محل الاعجاب ومناط التقليد . وكان فيلسوفنا الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون قد تحدث في مقدمته عن ولع المغلوب بتقليد الغالب ، وأعطى أمثلة على ذلك مما صار إليه حال المسلمين في الأندلس بعد القلة والذلة ، ولم يحضر رحمه الله نهاية الأندلس

المسلمة . ولكنه تنبأ بمصيرها بسبب ما ذكر ..فهل يمكن القول أن العالم الإسلامي اليوم يمر بالتجربة التي مرت بها الأندلس ، وان نهايتها ستكون هي نهايته؟

إنه ما من شك في أن حالة الإسلام اليوم هي أقبح مما كانت عليه في الأندلس . ولكن المسلمون سوف لا يطردون من بلادهم — وان كانت بادرة فلسطين لا تحمل على الاطمئنان كثيرا — كما طردوا من الأندلس . وإنما الذي يقع وهو جار بالفعل ، أن يطرد المسلمون من حظيرة دينهم ، وأن يجردوا من كل ما يميزهم عن غيرهم من شعارات ومظاهر وان ينسلخوا من ربقة الاسلام ورابطته شيئاً فشيئاً حتّى لا يبقى بيدهم الا هذه القوميات الضيقة التي هي الى التقاطع أدعى منها إلى التواصل ، وبذلك يحارب بعضهم بعضاً مع الأجانب وبدونهم ، وبذلك لا تقوم لهم قائمة بعد ، ولا يزالون يسبحون في فلك المستعمر وان جلا عن أرضهم .

إن فكرة القومية والوطنية كانت هي أول ما غزا عقول الجيل الراهن من المسلمين ، ولما تخلصت البلاد الاسلامية من الاستعمار السياسي بفضل الشعور الديني لا بفضل القومية والوطنية ، والانقلاب التركي نفسه لا يستطيع نكران هذه الحقيقة ، جاءت خدعة نظام الحكم عند الغربيين ، فاستولت على أفكار هذا الجيل ، فهذا مغرم بالديموقراطية ، وهذا بالاشتراكية منها خاصة ، وهذا بالشيوعية ، وهذا بغير ذلك . أما نظام الحكم الاسلامي فلم يعد يشغل حيزاً من فكر الزعماء والقادة ، والمُتَمَسْلِمُ منهم من يلطخ دعوة الاسلام ودستور القرآن فيصمها بهذه الأسماء المدخولة ، ويتحدث عن ديموقراطية الاسلام والاشتراكية الاسلامية ، وربما في يوم قريب نسمع حديثاً عن الاسلام الشيوعي .

لو شبهت هذه الديمقراطية ومذاهبها المختلفة بالاسلام لكان ذلك طعناً في حقه ، فكيف يشبه ما أتى به من قيم عليا ومثل سامية بالديموقراطية أو الاشتراكية وما إليها ... ان هذا النظام الذي لا ضمير له إلا الرشوة ولا قانون إلا الميز ، حرام أن يقاس به النظام الذي جعل صهيباً وبلالاً وسلمان في مستوى واحد مع أبي بكر وعمر وعلي .

وبعد الاصفاق على نظام الحكم الإسلامي في العالم الإسلامي كله ، واجه أصحابنا القوانين والأحكام والعقود فلم يترددوا في اقتباس القوانين الغربية ومجلات أحكامها ، بل انتساخها وترجمتها بالحرف ، انه العجز الذي تحدثنا عنه آنفاً لا يساعدهم حتّى على الاقتباس . وهكذا بعد ان كان الحاكم يحكم باسم الله صار

يحكم باسم غيره ، لأن الغربي أسقط الدين والاعتقاد والشرع الإلهي من حسابه ، فمقلده الذي هو أهون منه لا يمكن أن يكون إلا كذلك ، ولم يحكم باسم الله وهو لا يحكم بشرعه؟ اللهم الا هذه العقدة التي واجهت أصحابنا في كل بلد اسلامي ، وهي عقدة الأحوال الشخصية ، فمن حيث أن الأجنبي لم يهتم بها حتّى يقننها فيوفر عليهم تعباً كبيراً ، كانوا مضطرين لتبويبها وتفصيلها والتبجح بعد ذلك بأنهم قاموا بأعظم إصلاح للقانون الإسلامي ، وإنصاف المرأة المسلمة المهضومة الحقوق المستباحة الحرمة ...

نعم لقد هضمت حقوقها واستبيحت حرمتها حقا ، ولكن بعد انصافهم لها ، فبينما لم تكن توجد في البلاد الإسلامية أرملة ولا عانس ، صارت هذه البلاد أسوة ببلاد الحضارة الزائفة تعج بالنساء المحرومات من دفء الزوجية ، وبعد ان كانت الفتاة مطلوبة صارت طالبة ، وبعد أن كان الطهر والعفاف شعار المجتمع الإسلامي صار الفسق والفجور وخيانة الزوجية الطابع الغالب على هذا المجتمع .

إن الفتاة المسلمة التي كانت كالزهرة الناضرة ، والتي كانت لا تمتد إليها عين ، فأحرى يد بسوء ، صارت الآن تغشى المحافل والمجتمعات الراقصة ، وتبرز وهي كاشفة أطرافها ، ومُبديةً زينتها ، بل عارضة لمفاتنها ، مخالفة المخالفة الصريحة العلنية لتعاليم القرآن وسنة الإسلام ، بحجة الحرية الشخصية والتقدم والنهوض ونبذ الحجاب . وما كان الحجاب إلا عادة اتخذها نساء الحاضرة ، وقاية لأنفسهن من الأذى ؛ وما كان الحجاب إلا نوعاً من التنكر ، تختاره السيدات حين اضطرارهن لقضاء بعض أغراضهن من غير تعرض لفضول المتطفلين..أما التهتك والاستهتار والمخاصرة والرقص ، فلم تكن قبل ولا بعد ، من شرع الاسلام ولا من قانون الأخلاق .

وماذا في التعليم؟ لقد أخذت اللادينية فيه طريقها ، وصرنا أحرص الناس على ادماج التعليم الديني في التعليم المدني ، بعد بخس حظ هذا الثاني من أصول التربية النظرية باله العملية ، وبقدر ما كانت مراكز التعليم الديني حصوناً للفكرة السياسية التي تدعو إلى التحرر من النير الأجنبي ، وحصوناً كذلك للغة العربية وآدابها يوم كان الاستعمار يطاردها من كل مكان ، بقدر ما صارت اليوم عند هؤلاء المقلدة أوكاراً للخيانة ومباءات للرجعية يتربص بها الدوائر ، ويسخر منها ومن رجالها في كل فرصة ومناسبة .

أما الاقتصاد والنظم المالية فقد تبع العالم الاسلامي فيها النظريات الغربية ، وخاصة في البلدان الرأسمالية القائمة على الاحتكار والاستغلال والإثراء الفظيع على حساب الطبقات الكادحة، والمستهلكين من الشعب مع التعامل بالربا الحرام والتسامح في فتح أندية الميسر والقمار وأماكن اللهو (البريء) (وغير البريء). مع أننا نجد التعامل بالربا ممنوعاً في بلاد أوربا الشرقية ، والقمار غير مسموح به في كثير من البلدان الراقية ، والخمر كان ممنوعا في أمريكا مدة رياسة (هوفر) وما رفع عنه المنع بعد إلا لأسباب لا تتعلق بمبدأ المنع .

أما في بلادنا فإذا تجرأ المشترع وقرر بعض ما أتي به الشرع الاسلامي في هذا الصدد ، من منع تعاطي الخمر فإنه لم يستطع أن يمنع بيعه على المسلمين ، والشارع المعصوم ﷺ يقول : «إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه» . وليس هذا فقط ، فإنه قلما تقام حفلة خارج البلاد أو داخلها الا وكان الخمر عنصراً مهما من عناصر إقامتها ، إرغاماً لأنف الاسلام وإرضاء لمن كفروا به من قبل ، استغفر الله ، بل إشباعا لنهمة جشعة وإرواء لغلة هيمى. ولكل جديد لذة كما يقولون .

ولقد حدثني صديقي م ، كوبي ، المسلم الهولاندي ، ان المسلمين في عاصمة هولاندة لاحظوا على بعض السفارات الإسلامية مثل هذا الصنيع ، فقيل لهم انها مجاملة لمن يحضر الحفلات من غير المسلمين ، فقالوا ولم لا تقدم سفارة إسرائيل لحم الخنزير في مآدبها؟ ألانها لا تعرف المجاملة وما يجاملها القوم أكثر مما يجاملونكم؟..

حقاً انها مهازل ، انها المضحكات المبكيات .

فهذه هي النكسة التي أصابت الإسلام في هذا العصر ، وما يرجَى له منها إفاقة ما دامت مقاليد الأمور في بلاده ، بيد هذا الجيل (الأجنبي) عن الإسلام والمسلمين ، هذا الذيل المُنْتِن الذي رصده أعداء الإسلام ليذودوا به عن أنفسهم كل ما يشوش عليهم من حشرات وطفيليات ، والمسخ هو ذلك الفهم الخاطئ لمبادئ الاسلام وذلك التطبيق الأعوج لبعض أحكامه الذي يحاول به بعض المتمسلمين التغرير بالجماعات المؤمنة موهمينها أنهم من المصلحين الاسلاميين والمجددين الدينيين .

إن المسلمين فيما مضَى كانوا يعرفون الخطر الذي يتهددهم فيواجهونه جميعاً فينتصرون، واليوم يلبس عليهم الشيطان ويسمي لهم الأشياء بغير أسمائها الحقيقية،

ويدس فيهم من يدعوهم إلى التحلل واللامبالاة ، فيفسدون أخلاقهم ويثبطون عزائمهم . وقد أصبح أكثرهم عبداً لشهوته فهو لا يقبل إلا ما يوافق هواه ، ومن هذه الثغرة أُخِذوا ، ولو كانوا أقوياء النفوس لما انقادوا في حبل الشيطان ودُعاتِه المارقين . ان الأمر جد ، فيجب أن تتخذ له أهبته ، وعلى الدعاة والمرشدين ان يجندوا أنفسهم لتعريف المسلمين بما يحيط بهم من الأخطار ، وليصارحوهم بأن أكثر ما هم عليه ليس من الإسلام في شيء ، فإن عزموا أمرهم على التمسك بدينهم فليراجعوا سيرة سلفهم الصالح ، وليحاربوا أهواءهم استعداداً لتحمل الأمانة من جديد ، مهاجرين ما نهى الله عنه ، مجاهدين بنية لإحياء مجد الاسلام واعزاز كلمته ، ويومئذ يحق لهم أن يفخروا بتحرير أوطانهم وإحراز كيانهم «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله».



هَـذا مِنَ التَّوجيـه

أخي الأستاذ ابن منصور :

ما كنت لأنسَى كتابة مقال ثان لمجلتك حتَّى تؤكد علي في ذلك ، ولكنني كنت أفكر في موضوع المقال ، .وان لم أفكر قط في مسألة التوجيهات التي طلبتها مني ، حتَّى جاءتني رسالة من أحد طلبتنا بمصر ، فإذا بي أجعل موضوع المقال هذه التوجيهات نفسها .

لما قرأت تلك الرسالة تأففت من طولها الذي لا طائل تحته ، فإنها كانت ملأى بالأفكار الساذجة التي لا تستحق الوقت الذي قرئت فيه . ثم فكرت في أمر صاحبها ونشأته وبيئته وتوجيهه المدرسي قبل سفره إلى مصر ، كل ذلك كان يحمل على الرجاء القوي في عدم تأثره بالدعايات الباطلة والأقوال الفارغة التي أوحت إليه بتلك الأفكار ، فقلت إن الأمر جد ، ولعل غيره من الشباب يفكر هذا التفكير العقيم ، فلابد من التوجيهات التي قال لي عليها الأستاذ ابن منصور وان كانت ليست له ، بل لمن يقبلها من الشباب ، والشباب ذي الرأي العشريني على الخصوص الذي أظن صاحبنا منه ، فلا يلبث إذا وجد من ينبهه إلى عين الصواب في هذه الموضوعات أن ينتبه ويرجع عن خطئه ، وتلك هي فضيلته التي يمتاز بها عن غيره من الشباب المتعجرفين ، وقبل كل شيء ، لابد أن أعرض كلام صاحبنا على أنظار القاريء الكريم ثم أعقب عليه ببيان ما فيه من التدافع ، لبنائه على غير نظر صحيح ، قال :

«وقد اهتمت صحف مصر بزيارة جلالة الملك لطنجة اهتماماً كبيرا ، وهي تنشر كل يوم تفاصيل هذه الزيارة على الصفحة الأولى وتشغل أعمدة كثيرة بل صفحة بأكملها ، وعلقت على التصريح الذي صرح به جلالة الملك لأعضاء السلك السياسي الذي جاء فيه : «لقد اشتركت مراكش في الحرب ، وانه لمن العدالة أن تنال حقوقها الشرعية التي تتمناها ، وتلك الحقوق تتألف منها الأماني الشرعية عند

الشعوب الأخرى وتلائم الوقت الحاضر» غير أني لم أرتح لتعليق رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بول رمادييه الذي جاء فيه : «لكي يتسنى تقدير التصريح الذي فاه به عظمة سلطان مراكش في طنجة يجب أن ننظر إليه على ضوء الحالة السياسية على حقيقتها ، ان عظمة سلطان مراكش هو الوحيد من سلالة النبي عليه السلام وقد وضعه العالم العربي في وضع خاص ، إنه لم يطالب بالخلافة التي اختفت من العالم العربي منذ قيام الجمهورية التركية ، وهكذا فإن له مكانة خاصة من الناحية الدينية ، وأيا كان الوضع فإنه يستطيع أن يلمح بذلك كما سبق أن فعل في عدة مناسبات الخ ...».

ومسألة الخلافة هي مسألة قضى عليها الزمن وماتت إلى غير رجعة ، فلا يصح لنا في هذا العهد الذي ننشد فيه الحرية ورد الاعتبار إلى شعبنا والاتصال بالعالم الخارجي والجامعة العربية ، ان نربط سياستنا بالدين؛ فقد ذهب عصر التعصب الديني عهد الحروب الصليبية . ولا أدري كيف نوفق بين أمانينا في الارتباط مع الجامعة العربية وهذه السياسة الدينية . وهناك شعوب إسلامية كثيرة حتمت عليها الظروف العالمية أن تغير هذه السياسة وتتمسك بالعروبة . ومن جملة هذه الشعوب شعب مصر ، فهو ليس شعباً عربياً . ومع ذلك فقد تمسك بهذه السياسة التي حبذها كثير من المفكرين في مصر والشرق العربي ، وهي أن أي أمة لغتها العربية يجب أن تدعى أمة عربية ، ولذلك فإني اقترح عليك أن تسمي مدرستك بالمدرسة العربية بدل المدرسة الاسلامية التي سمعت أنك سميتها بهذا الاسم .

أما هذه الحركة الاسلامية التي تظهر في بعض الشعوب فما هي الا سموم استعمارية يبثها المستعمر للتفرقة بين المواطنين كما فعل الانكليز في الهند ليؤخروا حركة الاستقلال الهندي ، فدفعوا علي جناح ليقوم بحركته المعروفة وهي مطالبته باستقلال المسلمين عن الهندوس ونتيجة هذا التعصب تظهر دائماً في هذا القتال الطائفي الذي لم يفتر منذ استعمر الانكليز الهند . وكم حاول الانكليز أن يثيروا هذه الدسائس في مصر بين المسلمين والأقباط ، ولكن سياستهم كانت تفشل دائماً لأن المصريين اعقل من أن يقعوا في هذه الدسائس وهم دائما يصرحون بأنهم مصريون قبل كل شيء . ثم لما أخذت الجامعة العربية تعارض سياسة الانكليز أخذوا يعملون من وراء الستار لكي يبذروا الشقاق بين أعضاء الجامعة العربية ، فظهرت مسألة سوريا الكبرى على يد ملك شرق الأردن ، وهو معلوم في الشرق بأنه ينفذ سياسة الانكليز ويخدم

مصالحهم الاستعمارية أكثر مما يطلبون ، وهذا الذي أخر حركة الشعوب الاسلامية الشرقية ، وما أعقب ذلك من زيارته لتركيا . وهذه الحركة كان يراد بها القضاء على الجامعة العربية ، وعلى زعامة مصر لهذه الجامعة وانتزاع هذه الزعامة منها ، لأن مصر اليوم أصبحت تعارض سياسة الانكليز ، ولذلك فالانكليز يريدون أن يعطوا هذه الزعامة لتركيا الحليفة التي تنفذ سياستهم ضد الروس ، ولقد لاحظت هذه السياسة الاسلامية في الخطاب الذي أرسله جلالة ملك المغرب إلى جلالة ملك مصر بمناسبة عيد ميلاده ، فلقد تعرض الملك لهذه الحركة الاسلامية ، ويكفي أن أذكر لك أن خطاب جلالة ملكنا هو الخطاب الوحيد الذي تعرض لهذه المسألة من بين سائر خطابات ملوك الدول العربية ورؤسائها ، فما كان من جلالة ملك مصر إلا أن تعرض كارها لهذه النقطة في رده على جلالة ملك المغرب».

هذا كلام صاحبنا الذي عز علي بمقدار ما له من مكانة عندي ، أن تكون هذه أفكاره ، بعد غياب سبع سنين أو أكثر في مصر عاصمة العروبة وقبلة الاسلام ، ولقد جعلني آخر كلامه أشك في أوله ، إذ بمقدار ما أصاب في تعليقه على كلام رئيس الحكومة الفرنسية الذي جاء استغلالا كله وتشويها لتصريح جلالة الملك ، أخطأ الرأي في مسألة السياسة الاسلامية ، وعلاقات الحكومات العربية ومنها مصر والجامعة العربية بهذه السياسة ، فيمكن أن يكون أول كلامه مستمدا من الردود التي نشرت بالصحف على اثر اذاعة كلام رئيس الحكومة الفرنسية ، وفيها توضيح ما يرمي إليه جلالة الملك بتصريحه الخطير ، ولهذا كان أول كلامه سديدا وموضوعا في محله ، وآخره أفكار عابرة خطرت بذهنه فسجلها في رسالته هذه ، ولو وجد من يناقشه فيها قبل كتابتها لما كان كتبها .

فهل صحيح أن الخلافة ذهبت إلى غير رجعة؟

وان الارتباط بالجامعة العربية لا يصح مع التعلق بالدين؟

وان التمسك بالسياسة الاسلامية تعصب ديني ، ورجوع إلى عهد الحروب الصليبية؟

هذه أفكار زائغة جداً عن الحق والصواب ، ولو أنها قيلت في سنة 1922 حين طغت موجة الالحاد والشك على مصر والشرق لما وجدت من يقبلها ، ولزيفتها الأقلام المثقفة تزييفاً ، فكيف بعد أن تقررت السياسة الاسلامية في الشرق كله ، لا

فرق بين عربيَّة وعجميَّة ، وعادت الطمأنينة الروحية إلى النفوس ، فلم تعد تساورها النزعات المادية الممقوتة – يقول قائل ان التمسك بالسياسة الاسلامية تعصب ديني ورجوع إلى حافرة العهود الصليبية؟–.

إن مصر بلد إسلامي ، وفيه أكبر جامعة إسلامية في العالم ، وملكها مسلم لا يفتأ يتجاهر باسلامه ، ويعلن تمسكه بشعائر دينه من صلاة وصيام وإرسال الوفود كل عام إلى حج بيت الله الحرام ، ودينها الرسمي هو الإسلام كما ينص على ذلك دستورها الذي يتمسك به فيها القبطي والمسلم على السواء. وفيها وزارة للأوقاف. وهي اسلامية بحت ، كما فيها محاكم شرعية وقضاة مسلمون يحكمون بأحكام الشرع الشريف . وأعظم المطابع الموجودة في العالم لطبع كتب الفقه والحديث والتفسير والمؤلفات الدينية على العموم من قديمة وحديثة ، هي مطابع مصر ، ومصحف فؤاد هو أحسن وأفضل طبعة للقرآن الكريم من حيث الجودة في الطبع ، والدقة في الرسم ، وقد صدر في مصر كما هو معلوم .

كل هذا وغيره مما لا نحتاج إلى تعداده يطبع مصر حكومة وشعباً بالطابع الاسلامي الخالد ، ويثبت دعائم سياستها الإسلامية التي لا تخفى على ذي عينين ، فَلِمَ لَمْ يمنعها ذلك من الاتصال بالجامعة العربية بل من أن تكون مركز دائرتها وقطب رحاها .

وهل أتاك ياصديقي العزيز نبأ الأمين العام لهذه الجامعة وبماذا أدرك هذا المنصب السامي؟.

أنا وأنت لم ندرك زمن كان عبد الرحمن عزام محارباً إلى جانب الجيوش التركية – جيوش الخلافة الاسلامية – في حرب طرابلس الغرب ضد المغيرين من الطليان ، ولئن كنت أنا مولوداً في ذلك الوقت فإني لا أثبت الحادث ، وهل كانت هذه الحرب حرباً عربية أو اسلامية ، والزمن زمن الترك ، والجامعة العربية لا زالت لم يعلق جنينها بفكر العرب بعد؟..

ثم اني أثبت بالأمس القريب المؤتمر الاسلامي العام الأول المنعقد من أجل فلسطين وقد كان الصوت المُدوِّي فيه من مصر ، بل من الأقطار العربية جمعاء هو صوت عزام ، في حين كان غيره من الساسة العرب يتحفظون تحفظاً كبيراً في ذلك الوقت ازاء مسألة فلسطين . فهذه الروح الإسلامية الكبيرة هي التي رفعت عزام باشا

اليوم إلى أمانة الجامعة العربية العامة ، وبذلك تعرف أن التعلق بالدين لا ينافي الارتباط بالجامعة العربية .

لم يكن التعصب الديني شعار المسلمين قط ، والإسلام دين التسامح والاخاء البشري المطلق ، ولم يكن في الإسلام عهد للحروب الدينية أصلاً ...وأما الحروب الصليبية فإن عارها يرجع إلى من شنها على المسلمين الآمنين المطمئنين في أرضهم وبلادهم بدون حجة ، ولا سبب الا المطامع والأهواء ، والجهل المطبق بحال المسلمين الذين كانوا في ذلك الوقت أرقَى منهم أخلاقاً وأفكاراً وحضارة مادية وأدبية بشهادة المنصفين من كتابهم ومؤرخيهم .

ومليحة شهدت لها ضراتها والحق ما شهدت به الأعداء

وإذن فلا تعصب ديني ولا رجوع إلى الحرب الصليبية من طرفنا ، وإذا كان شيء من ذلك فهو من الخصوم ومن دول الغرب النصرانية التي لا تجد مع الأسف حتّى من شبابنا المتنور من ينعي عليها سياستها المسيحية ، ويقول لها إن ذلك يتنافى مع الجامعة اللاتينية أو السكسونية أو السلافية أو الأوربية عامة .

لقد برح الخفاء ، فهذه منظمة الأمم تجتمع إلى مائدتها اثنتان وخمسون دولة من أديان وألوان وأصول مختلفة ومنهم المسلمون ، بل ان المسلمين مبرّزون فيهم ، ولقد اضطرت الدول إلى الاعتراف لهم بهذا التبريز ، فانتخبتهم في لجان الأمن العام والعدل الدولي وغير ذلك ، وما قال لهم أحد إنكم مسلمون ، وان تمسككم بالاسلام في أنفسكم أو تمسك دولكم به مما يفرق بيننا وبينكم ويصمكم بالتعصب الديني . فليفتح شبابنا أعينهم وليعرفوا سبل الرقي الحقيقي ، وليعلموا أنه مهما تجردوا عن الدين تماماً ، أو صاروا نصارى بالكلية ، فلا أحد يمكن أن يعتبرهم الا بالعلم والعمل والسعي في سبيل الصالح العام .

ولقد اذكرتني هذه التفرقة بين الجامعة العربية والاسلام ، بما نشرته جريدة البيان الأمريكية في أحد أعدادها الأخيرة لبعض الغيورين منددا بالذين يذكرون الأمير شكيب أرسلان ويؤبنونه فيقولون عنه فقيد العروبة وفقيد الاسلام قائلاً : أي فرق بين العروبة والاسلام؟ فان احدى الكلمتين تكفي عن الأخرى ، وحيث أن العصر الحاضر أسقط اعتبار الأديان من حسابه ، فالواجب أن يقال فقيد العروبة وحسب ....وقد اجابته جريدة البيان بأن هناك أقطاراً إسلامية كبيرة لا علاقة لها

بالعروبة ، وكان الأمير يدافع عنها ، ويهتم بقضاياها كاهتمامه بالبلاد العربية أو أشد ، ولهذا فهو فقيد العروبة والإسلام وان استنكر المستنكرون .

وشبيه بهذا ما ورد في رسالة صاحبنا من أن برقية جلالة ملك المغرب هي التي أشارت إلى القضية الإسلامية ، فكان أن تعرض لها جلالة ملك مصر كارهاً ... فليت شعري من اين عرف حضرته كراهة ملك مصر لذلك؟ ومن الذي أكره جلالته حتّى ارتكب هذا الأمر الذي ليس من النضج السياسي في شيء إذا قدرنا أن جلالة ملكنا ارتكبه وهو لا يدري ما فيه من منافاة لسياسة الجامعة العربية؟.

أما قضية سوريا الكبرى فإنها ليست من هذا السبيل في شيء ، وحقيقتها أنها مشروع انجليزي ، ولذلك استنكرها ساسة العرب لا لسياسة عبد الله الاسلامية ، فما من أحد من الناس كان حينذاك يأتمن شرق الأردن وحليفته تركيا على الإسلام .

وبخلاف ذلك مسألة الباكستان في الهند ، فإنها قضية وطنية حقيقية ، ونجاحها نجاح للعروبة والاسلام ، إذ أن تسعين مليوناً من المسلمين الهنود إذا كانوا ذوي كيان سياسي مستقل فإنهم قوة عظمى لا يستهان بها ، والهندوكيون والانجليز يعرفون ذلك ، فهم يتآمرون عليهم ، ويريدون أن يجعلوهم أقلية لا شأن لها في سياسة بلادهم ولا في السياسة الدولية ، فمن يخرج عن فكرة الزعيم الإسلامي جناح هو الذي يساير الاستعمار الانجليزي ويؤخر قضية الهند والشرق على العموم . ومن دهاء الزعيم جناح أنه قبل مشاركة أنصاره في الحكومة الوطنية التي عقدت قبل هذا بقليل ، وحضر في مؤتمر لندرة الأخير الذي أعرب عن فشل تام لتصلب الهندوكيين وتعصبهم على المسلمين ، فأعذر بذلك للرأي العام البريطاني والدولي عن موقفه ، وعرف الناس حينئذ أن الباكستان هي مسألة حياة أو موت لمجموعة من البشر يفوق تعدادهم عدد سكان بريطانيا مرتين .

الخلاصة ان السياسة الاسلامية التي تتبعها غالب الأقطار العربية والشرقية هي سياسة موفقة لا تدل على تعصب ديني ، ولا تدعو إلى حروب صليبية كما يتوهم ، بل ليس هناك من يتوهم ذلك ، حتّى الصهيونيون لم يجرأوا أن يقولوا إن مناهضة العالم الاسلامي لهم هي بدافع التعصب الديني ، لأن العالم كله يعرف أن ذلك صراع سياسي سيكون النصر فيه للجانب المحق ، وهو الجانب الاسلامي أو العربي بعبارة أخرى .

فليهدأ روع من يقلق من هذه المسائل الدينية ، وليعلم أن المستقبل دائماً للمبادىء الفاضلة ، وهي في جانب الدين ، وللتكتل والاجتماع ومكاثرة الخصوم ، وهذه ان تحققت في جانب العروبة فهي في جانب الاسلام أكثر تحققا ....وما دامت هناك دول غربية تعد بمائة مليون ومائة وخمسين مليونا فلن يحمي حوزة الشرق والشرق العربي على الخصوص إلا الخلافة الاسلامية التي لن تموت أبداً . ولو في شكل جامعة اسلامية ، أو على الأقل سياسة اسلامية يتبعها المسلمون في جميع الأقطار .



حُكم الدّين في تعلم المرأة
تحية إلى الأميرة عائشة
زعيمة النهضة النسوية بالمغرب

في مجلة مشبوهة حملها إليّ رجل مشبوه من غير طلب ولا سبق معرفة بهما معاً ، قرأت كلمة ركيكة في موضوع تعليم البنت المغربية ونتائج المدارس العصرية ، تعرض فيها كاتبها لما ليس له به علم من حكم الدين في تعلم المرأة ولما لا يهمه من الاحتفاظ بالتقاليد والعادات المغربية ، لأنه أجنبي عنها . ثم تورط في التهجم على مقام كريم يراه المغاربة رجالاً ونساءاً مثالاً في التخلق والتأدب وقدوة سامية للتعليم والتهذيب .

فقلت ياللوقاحة والجهل المركب وافتيات الدخلاء على الأصلاء ، واجتماح ثمانية الأشخاص الذين يستحقون الصفع في شخص واحد ، وأنشدت ما كنت قلته منذ مدة ، ولا تزال الأيام تذكرني به كلما نسيته :

وفي خروج المرء عن طوره ما إن رأيت منكراً قطعا
كعالم يفتي ويرعى الخطا وجاهل يفتي ولا يرعى

فماذا يعني هذا التحكك بنا وبديننا وبملكنا وشؤوننا الخاصة؟ أصرنا إمّعات في كل شيء حتّى في علم الدين الذي هو بضاعتنا ومادة اختصاصنا ، فيأتي الدخيل فيه يريد أن يلقننا أحكامه ويبين لنا حلاله وحرامه ، كأنا بحاجة إلى فتواه الاستعمارية ونصيحته الشيطانية؟ أما كان كافيه أن يبقَى واغلاً في طوائف المُتَفَقِّرة ، يموه عليهم بزخرفه الباطل ويغويهم بنسكه الأعجمي ولا يخوض فيما لا يحسن الخوض فيه ، ولا يخاطب مَن لا يسمع منه ؟ ولكنه الغرض السوء والنية الفاسدة أمليا عليه فكتب ، وعند أسياده أجر ما كتب .

اننا في غنَى عن نصيحتكم أيها القوم، وقد عرف الناس مقاصدكم فصاروا

يتعمدون مخالفتكم فيما تشيرون به ، ولما منعتم عنا عونكم فيما أنتم بصراء به من علوم الحياة وأمور الدنيا ، فلا تظنوا أننا نقيم لكلامكم وزناً في غير ذلك من الشؤون التي نحن أدرى بها منكم وأحق وأولى.

ان المغرب ملكاً وشعباً على بصيرة من أمره ، عارف ما يقصد ، لا يصده صاد عن الهدف الذي يرمي إليه وهو التحرر من عبودية الجهل وعبودية الفقر وعبودية الظلم والتسخير. وهو مؤمن أشد الإيمان بأنه لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية الا بانتشال الفتاة المغربية من وهدة الجهل والخمول التي سقطت فيها منذ ان قضي عليها بالذل والهوان ، فلا تنتظروا منه أن يتراجع في هذا الأمر ، ولو تقولتم عليه من الزور والبهتان ما تقولتم.

إن كل مغربي مغربي ، لا يرضيه بعد اليوم الا أن يرى في زوجه وبنته وأخته قرة نفس وملء عين وسلوة قلب ، لا كمية مهملة لا دخل لها في عد ولا حساب ، يريد أن يرى في زوجه شريكة حياة وربة منزل ومربية أولاد بالمعنَى العلمي الصحيح لا لحما على وضم ان لم يحرسه أكلته الكلاب.

ان عائشة الصديقية كانت قدوة لجميع المؤمنين في تربية بناتهم وتعليمهن وتخريجهن في جميع الفنون ، وقد كانت نساء الصدر الأول والعصور الاسلامية الزاهرة كلهن مهذبات مثقفات ، يشاركن أزواجهن في تحمل أعباء الحياة وبذلك كثر النابغون في العلوم والآداب والقواد الفاتحون من الرجال ؛ لأن الأم التي هي المدرسة الأولى كانت تبث في أبنائها روح الشجاعة والاقدام ، وتغرس في نفوسهم حب العلم والآداب. كيف وقد كان من تلك النساء الشاعرات الكاتبات ، والفقيهات المحدثات ، والطبيبات الحكيمات ، بله النساء الحاكمات والنساء المقاتلات والنساء المتطوعات لتحريض المقاتلين وتمريض الجرحَى اللائي هن أفضل بكثير من مجندات الحرب العصريات ، لتصونهنَّ وترفعنَّ عن عبث هؤلاء العابثات.

والاسلام لما قرر أن النساء شقائق الرجال في الأحكام بشاهد «قل للمؤمنين وقل للمؤمنات» أوجب عليهن من طلب العلم ما أوجبه على الرجال حتَّى صار العامة يروون هذا الحديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم» بزيادة ومسلمة ، تصريحاً بما تضمنه اللفظ من عموم الدلالة.

ولما كان الرجال لا حجر عليهم في طلب العلم ولا حد لما يقفون عنده منه ، فإن

النساء كذلك يطلبن من العلم ما يرتئين ويتخصصن فيما شئن ، ومن ادعى خلاف ذلك فعليه أن يأتي بالدليل ، وحديث «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء» إذا لم يصح لفظاً ، فهو صحيح معنًى ، وهو صريح في أنه لا نهاية لما تطلبه المرأة من العلم ، ولا غاية يجب أن تنتهي إليها فيه ، وشطر الدين المراد به ما يتعلق بالنساء من الأحكام وهذا دليل آخر على أنهن شريكات الرجال في الواجبات ، ومن جهة أخرى فإن السيدة عائشة على علمها بشطر الدين أعني ما يتعلق بالنساء منه كانت عالمة بالشطر الآخر أي ما يتعلق منه بالرجال ، وهذه غاية لا تدرك . وكما جاز ذلك في علم الدين يجوز في علوم الدنيا ، بل ان العلوم كلها إذا طلبت بنية حسنة كان طلبها من الدين .

ومن حسن صنع الله للمغاربة ولطفه بهم ان وهب لهم قدوة حية في هذا السبيل ، بعد ان طال عهدهم بالقدوة السابقة ، وجعل هذه القدوة من أنفُسهم ومن أنفَسِهم ، وفي ذؤابة العز والشرف وذروة المجد والفخار ، الا وهي الأميرة عائشة التي تزعمت الحركة النسائية في المغرب على فتاء من السن ، فهي ما تزال تحفز الهمم وتشد العزائم وتعلم بقولها وفعلها وحركاتها وسكناتها . وكم خطبت في الجموع الغفيرة وأهابت بالفتاة المغربية إلى النهوض والتقدم ومجاراة سنن الحياة في التطور ، حتَّى أصبحت مناراً يهتدى به في هذا المقام ورمزاً لفتاة المستقبل التي تقر بها عين العروبة والاسلام ، فالله يحفظها ويبقيها ذخراً للوطن وشجى في حلوق الأعداء الذين يكيدون له في السر والعلن — آمين — .

وحيث أن الحركة التعليمية في المغرب قائمة على هذا الأساس من هدى الدين وسنة السلف الصالح ودعوة سيدة فتيات العصر ، فكيف يتطرق إليها الخلل أو تسوء بها الظنون أو تعلق بها شبهة من الشبه؟ الا أن يختلق ذلك زنيم ظنين متهم في دينه وعرضه وخلقه ، وقد أمرنا بعدم طاعة هذه الطائفة بقول الله تعالى «فلا تطع المكذبين» .

ولتنوير القارىء العادي ، ننقل له فقرة من مقال للكاتب موريس لوكلي نشره بجريدة «لافيجي مروكان» التي تصدر بالدار البيضاء في عدد 28 مارس 1937 ومنها يعرف ما يهدف إليه دعاة تجهيل الفتاة من سيء الغايات قال :

«ليس من الرأي أن نحث الأهالي على تعليم بناتهم ، إذ ليس في ذلك الغاية

التي ترمي إليها سياستنا الأهلية ، بل الواجب علينا أن نشجع نظرية الشيوخ الأهليين الذين يقولون بعدم تعليم البنات ، أو اقتصاره إذا كان على تعليم تدبير المنزل ومعرفة الطبخ والطرز والخياطة مع بعض مبادىء الكتابة والقراءة ، وان لنا في ذلك فائدتين :

ا – ابطاء نهضة البلاد نهضة خطيرة ، إذ من المعلوم المقرر ان مساهمة المرأة في تربية الأولاد من أسرع العوامل التي تدفع الأمم إلى التقدم والرقي .

2 – بما أن المواطن المثقف لا يرضى في غالب الأحيان أن يعيش مع امرأة جاهلة من بنات جلدته ، فإنه كثيرا ما يقع أن يتزوج امرأة فرنسية ويندمج بهذا السبب في أوساطنا ، وبذلك يصير اتجاهه كله إلى مصلحتنا وتتكون عائلة فرنسية التربية والوجدان .

إذن فلنترك الفتاة المغربية إلى التعاليم التقليدية التي تفرض على الشبان المغاربة المتبجحين –وكثير ما هم– وخصوصاً المتخرجين من مدارسنا ، الانحراف والميل إلى فتياتنا .

ولعل القارىء المذكور بعد اطلاعه على هذه الاعترافات لا يعود يشتبه في أن دعاة تجهيل الفتاة المغربية وحرمانها من التعليم هو من المستعمرين أو أنصارهم ، وان كان الحال في هؤلاء الأنصار لا يخلو إما أن يكونوا يقصدون هذه النصرة أو يعملون لها من غير قصد ، والأولون هم الذين يحاربون فكرة تعليم الفتاة عن سوء نية وعمد وإصرار ؛ والآخرون هم الذين يحاربونها عن جهل وضعف نظر . وعسَى أن يكون لهؤلاء في هذا الأمر الخطير تفكير حسن فيراجعون الصواب وإنما التوفيق من الله .

*

لا يَجُوز تَقْديسُ أحَدٍ مِنَ الناسِ
وجَعْله فوق النقدِ ، والانقياد إليه بلا حجَّة

جاءنا من دار العروبة للدعوة الاسلامية بباكستان السؤال الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأستاذ العلامة سيدي عبد الله كنون .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، فإننا مرسلون إليكم بالاستفتاء الآتي ، ونرجوكم الافادة بالجواب بأسرع ما يمكن لكم من الوقت :

ما قولكم أدام الله فضلكم في العبارة الآتية :

«مما توجبه عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله» على المسلم : أن لا يتخذ أحد غير رسول الله ﷺ مقياساً للحق ، ولا يرى فيه شخصاً فوق النقد ، ولا ينقاد له انقياداً أعمى يجعل فكره تابعاً لفكره ، بل عليه أن يعرض كل انسان على هذا المقياس الإلهي للحق ، ثم لا يضعه إلا في الدرجة التي يستحقها بحكم هذا المقياس» .

(عقيدة المسلم الأساسية من دستور الجماعة الإسلامية)

1 — فهل هذه العبارة منافية للعقيدة الإسلامية؟

2 — وهل تعد جماعة تعتقد بها من أهل الحق أم لا؟

3 — وهل تجوز قراءة كتبها ودعوة الناس إلى قراءتها؟

4 — وهل يجوز أن يناط برجالها أمر التدريس أو القيام بخدمة أخرى في مدرسة من المدارس الدينية؟

5 — وإن كان في مدرسة من المدارس الدينية علماء من هذه الجماعة يقومون بأمر التدريس مع الآخرين من علماء المسلمين ، فهل تجوز مساعدة مثل هذه المدرسة مساعدة مالية أو معنوية ؟

6 – وهل يجوز التعاون أو الاشتراك معهم في أمر من الأمور؟

أفيدونا تؤجـروا.

وفي الختام تقبلوا منه فائق التحيات والاحترامات.

أخوكم في الدين
محمد عاصـم الحـداد
معتمد دار العروبة للدعوة الاسلاميه بلاهور

* * *

الحمد لله.

الجواب والله الموفق للصواب.

إن العبارة المذكورة، ليس فيها ما ينافي العقيدة الاسلامية، ولا ما يوجب شيئاً من الايرادات المضمنة في الأسئلة بعدها، بل ان ما تفيده تلك العبارة هو مدلول الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» وقوله «وان تطيعوه تهتدوا» وقوله «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وهكذا فان الرسول ﷺ هو المتبوع الأعظم لأنه المبلغ عن الله عز وجل، «وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى» وليست هذه الصفة لأحد سواه كائناً من كان، ومن ثم كانت مخالفته مخالفة لأمر الله «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أن يصيبهم عذاب أليم» وقال تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتَّى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما» فجعل الإيمان منوطاً بالرضى بحكمه ﷺ والنزول عند قضائه، وهو مصداق الحديث القائل «والله لا يؤمن أحدكم حتَّى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وقال سبحانه «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا» فانظر كيف قال ليحكم ولم يقل ليحكما لما كان حكم الرسول هو حكم الله عز وجل، ومن أين يكون هذا لأحد غيره ﷺ؟. وقال عز من قائل «قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فإن الله لا يحب الكافرين» فجعل التولي عن طاعته ﷺ كفراً، وهو كذلك. فليت شعري كيف عكس الأمر في الايرادات التي أوردت على العبارة السابقة وهي لا تفيد أكثر مما دلت عليه هذه الآيات العديدة؟.

على أن ما يصدر من غيره ﷺ قولاً كان أو فعلاً، لا يخلو اما أن يوافق هديه وسنته، وتدل عليه الأدلة الأصول من القرآن والحديث أولاً، فان كان من القبيل الأول فهو حق لا مرية فيه، ولكن بالنظر لموافقته للمقياس الصحيح الذي جاءنا

به الرسول ﷺ لا بالنظر لمن صدر عنه ، ويدل على ذلك قوله تعالى «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» والرد إلى الله بالعرض على كتابه كما أن الرد إلى الرسول بعد وفاته بالعرض على سنته الثابتة ، وان كان من القبيل الثاني فهو بدعة وضلال ، يجب نبذه وعدم الأخذ به كما قال ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وكان الامام مالك (رض) يقول «كل كلام فيه المقبول والمردود الا كلام صاحب هذا القبر» يعني به النبي ﷺ ومن كلام الامام الغزالي (رح) «اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال» وهو مما تواصى به علماؤنا رحمهم الله خلفاً من سلف ، وإليه الاشارة بقول أحدهم :

مهما عرفت الحق بالرجال   بقيت في متاهة الضلال

وقد اختلف الأئمة في حجية قول الصحابي المجتهد بالصحة والمنع ، والثالث التفصيل ، وعزاه الباجي لمالك وهو أنه حجة بشرط أن لا يعلم له مخالف لأنه حينئذ اجماع ، وان خولف فليس بحجة لأن القول الآخر يناقضه.

ولعل هذا وحده كاف في الدلالة على أنه لا يجوز الأخذ بقول أحد من الناس مهما عظمت منزلته ، إلا إذا صحب ذلك القول دليل قوي من كتاب أو سنة أو إجماع ، كما أنه لا يجوز تقديس أحد من الناس وجعله فوق النقد والانقياد إليه بلا حجة ، فإن ذلك ليس من شرع الإسلام. وإذا كان هذا في حق الصحابة رضوان الله عليهم وهم أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ فأحرى في غيرهم.

ونحن تلطفنا في الكلام ، لأنا نعلم أن هذه الايرادات من اعتقاد بعض الطوائف الاسلامية التي نسأل الله لها الهداية. وإلا لو تبعنا أحكام الفقهاء لما ترددنا في تكفير من يصدر عنه مثل تلك الأقوال ، لأنها طعن في صميم العقيدة الاسلامية ، ولولا اعتبار ما يلبس عليهم من بعض الشبه لقلنا ان هذا كلام مبشرين انجيليين ، لا كلام مسلمين.

وعليه فالجماعة التي تعتقد بمضمون تلك العبارة هي على الحق ، وتجوز قراءة كتبها والدعوة إليها ، كما تجوز اناطة وظائف التدريس برجالها واعانة المدارس التي يدرسون فيها ، بل يستحسن ذلك ويرغب فيه بكل الوجوه والوسائل. وأما التعاون والاشتراك معهم في هذه الأمور فلا أقول عليه إلا ما جاء في الكتاب العزيز «ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً».

مقياس الصَّلاح

كنا في جمع حافل بالشخصيات الضخمة الكفايات ، المختلفة الاتجاهات ، فمن سياسي إلى صحفي إلى مدرس إلى قاض وشهود . وكان الاجتماع على دعوة كريمة لأحد الباشوات المثقفين ، أعني أحد الولاة أو أحد الحكام في مدينة ما ، ولا أقول أحد المحافظين تقليداً محضاً للاصطلاح المصري كما يروق لبعض كتابنا سامحهم الله أن يفسروا ألفاظنا الاصطلاحية بألفاظ اصطلاحية أخرى لا تستعمل الا في مصر ، فينقلون مواطنيهم من اصطلاح إلى اصطلاح ، ولا يفيدون القراء في البلاد العربية الأخرى معنى الاصطلاح المغربي المقصود .

ونرجع إلى الباشا صاحب الدعوة ، فإنه فضلاً عن منصبه الاداري وما له من ثقافة واسعة ، كان مما يُدلُّ بانتمائه إلى أحد البيوتات العريقة في المجد ، فهو يرَى نفسه رئيس الجمع وكثير ممن جمعتهم الدعوة يرَى معه ذلك .

وجال المجتمعون في ميادين الحديث، وتناولوا مختلف المواضيع، وأسهم الباشا برأيه في بعض المُذاكرات، وأحسن الانصات في بعضها الآخر. ثم كان مما أثاره هو من الموضوعات، ووجه الخطاب فيه بالخصوص إليّ مسألة الصلاح والصلحاء، والولاية والأولياء ، قائلا انه في صباه وشبابه ، كان يعرف كثيراً ممن يوسم بهذه السمة ، ويشار إليه بهذه الصفة ؛ فلم يكن يخلو جبل ولا قرية فضلاً عن المدن ، من رجال يعتقدهم الناس ، ويتبركون بهم ، ويرون أن وجودهم رحمة للانسانية ، وأنهم أمان لأهل الأرض ، يفزعون إليهم عند الملمات ولا يخشون ضرراً ما داموا موجودين بين أظهرهم . واليوم لا خبر ولا أثر ، فهل انعدم الصلاح من الدنيا ، أو ضرب على أهله بحجاب ، فلم نعد نراهم وان كانوا موجودين . أم ماذا؟..

وقد كان ما أجبته به ، ان الصلاح لم ينعدم ، وانما تبدل مقياسه ، فالصالحون بالمعنَى الذي كان يعرفه أهل الجيل الماضي لم يبق لهم وجود . أما أولاً : فلأن أكثريتهم الساحقة كانت ذات صلاح مزيف ، يراؤون الناس ويخدعونهم بالمظاهر

الكاذبة والدعاوى الباطلة ، ليحصلوا منهم على المنافع الشخصية ، والخدمة والتقديس ، وغير ذلك من الأغراض الدنيوية التي اتخذوا الدين مصيدة لها ؛ فلما لم تبق هذه الحيلة تنطلي على الناس ، فكر هؤلاء في وسيلة أخرى للعيش ، وخلعوا جلباب الصلاح المزعوم .

وأما ثانياً : فلأن من يكون صادق الحال منهم ، لا يتعرض للناس ولا يستظهر بصلاحه ، لأن صلاته وصيامه وعبادته كلها لا تكون معتبرة شرعاً ، إلا إذا كانت خالصة لوجهه تعالى لم تشب برياء ولا سمعة ، «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين» ويرحم الله ابن البناء إذ يقول في نظمه في الطريق :

(قول الفقير انني فقير إلى الظهور أبدا يشير)

ولذلك فنحن لا نهتدي إلى هذا «الصالح» وان كان يعيش بين أظهرنا يصابحنا ويماسينا .

على أننا وان اهتدينا إليه لم يكن له عندنا ذلك المقام الذي كان له ولنظرائه من صلحاء صادقين ومزيفين عند أهل الجيل الماضي ، لأن مقياس الصلاح كما قلنا قد تبدل ، ولم يعد الرجل يوزن بأعماله القاصرة عليه والعائد نفعها إليه ، وإنما يعظم قدره ويثقل وزنه — عند الله وعند الناس — بأعماله المتعدية النفع ، ومساعيه التي تعود فائدتها على الأمة ، لا عليه بالخصوص . وفي الحديث : «الخلق عيال الله ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» وقد جاء في مدح الإمام العادل ما لم يجىء قليل منه في مدح غيره من العاملين ، وما ذلك إلا لما يحصل به من النفع العظيم للأمة ، كتأمين سبلها وحماية حقيقتها والسهر على مصالحها الدينية والدنيوية معاً .

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

وكذلك جاء مدح العالم الذي ينفع الناس بعلمه ، والمالي الذي وقف ماله على مشاريع الخير ، حتى ان الحديث الشريف لم يرَ في الدنيا شيئاً يصح للانسان أن يغبط غيره عليه الا هذين الأمرين «لا حسد الا في اثنين رجل آتاه الله علما فهو يعلمه الناس ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق».

ولا يخفى أن هذا هو المقياس الصحيح للصلاح ، فإن الناس في عهد أبي بكر

وعمر لم يكونوا ينظرون لكثرة صلاة الرجل وصيامه ، وإنما ينظرون لجهاده وسابقته في الاسلام ، وأبو بكر وعمر نفسهما لم يكونا يجلسان في خلوة يذكران الله عز وجل باللسان ، ويصليان على النبي ﷺ مائة مرة أو مائتين أو ألفا ، ويتركان ما هو أهم من السعي في مصالح الأمة ، والعمل عن رفع شأن الاسلام ، ولا صالح في هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أعظم منهما .

ولأجل هذا المعنى قال الإمامان أبو حنيفة والشافعي رضي الله عنهما ان لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله من ولي .

بل وقد ثبت في السنة ذم حال أولئك الصلحاء الذين يقتصرون على العبادة ، ويتكلون على الناس وان كانوا صادقين، ففي الحديث ان ناساً من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيراً . قالوا : ما رأينا مثل فلان قط ، ما كان في مسير إلا كان في قراءة ، ولا نزلنا في منزل الا في صلاة ، قال : فمن كان يكفيه ضيعته حتى ذكر ، ومن كان يعلف جمله أو دابته؟ قالوا نحن . قال : فكلكم خير منه ، رواه أبو داود ، وبالاختصار لقد عاد مقياس الصلاح إلى أصله ، ولذلك نرى وجوه الأمة اليوم منصرفة إلى من يخدمها من الملوك والزعماء والمصلحين والعاملين كافة ، وان كانت لا تقصر قلامة ظفر في حق الصالحين بالاعتبار الأول ، ولكن إذا كانوا صادقين (وقليل ماهم).

قال الباشا : لعل هذا هو الحق . وقال الحاضرون : ان هذا هو الحق .



حـرب المبـاديء

لا تزيدنا حوادث الأيام إلا إيمانا بالأصول التي قام عليها هذا الدين الحنيف ، ولا تتقدم المدنية الحديثة خطوة إلى الأمام الا ونجدها متأثرة لخطى الإسلام في النظام العام الذي وضعه لسياسة البشر ، سواء في السلم والحرب ، والداخل والخارج ، والادارة والحكم . وتدبير المنزل ، والحياة الإجتماعية على الاطلاق . ولذلك كان من رأينا — دائماً — أن المدنية الاسلامية يجب أن تكون هي المقياس لصلاحية ما يعرض من النظم والقوانين السياسية والاجتماعية ، فما وافقها من ذلك كان صالحاً ومقبولاً ، وما خالفها يجب رفضه لأنه لا خير فيه . والمقصود الموافقة في الجوهر والمادة لا في العرض والشكل ، لأن الشكليات تختلف ، ولا اعتبار بها أمام المادة التي لا تبديل لها ولا تغيير ، وقد أشعر بهذا الحكم قوله تعالى «وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» ، فإذا كانت مدنية أوربا قائمة على أصول المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل ، فان مدنية الاسلام مستمدة من القرآن ومهيمنة مثله على مدنية أوربا .

وكم يخطىء هؤلاء الذين يعكسون القضية ، فيجعلون هذه المدنية الغربية مقياساً لكل تقدم في الفكر والحياة الاجتماعية ونظام الحكم والسياسة العامة ، ويقارنون بينها وبين معالم الحضارة الشرقية ، وخاصة الاسلامية ؛ فما وافقها كانوا به من الفرحين ، وما خالفها التمسوا له المخارج والعلل ، وربما أولوا النصوص الصريحة ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، كما فعل اليهود قبلهم ليصير أقرب إلى مواضعات الغربيين ، وأوفق لمدنيتهم التي بهرت العقول . واعتبر ذلك إذا شئت في مسألة الطلاق فقط ، فكم حاول بعض الكتاب في مطلع هذا القرن أن يمحوا (عاره) عن الاسلام وكادوا يدعون أنه تشريع شاذ لا يعمل به إلا في الضرورة القصوى ، ولا يقع إلا من جهلة المسلمين الذين لا أخلاق لهم ، كل ذلك ليترضوا المتجنين على هذا الدين الحنيف والمعيرين له بهذا التشريع الذي خلت منه المسيحية والمدنية الغربية بالتالي. فما مرت مدة قليلة من الزمن حتّى أصبح الطلاق في التشريع

الأوربي والأمريكي ركناً أساسياً وحكماً معترفاً به في نظام الحياة الزوجية ، وأفرط القوم فيه ، فصار في بعض كبار العواصم تسجل حوادثه بالدقائق والثواني . وقل مثل ذلك في مسألة تعدد الزوجات ، وقد كان نظاماً شائعاً قبل الإسلام ، فأقر الإسلام منه ما أقر وأنكر ما أنكر ، درءاً لحياة الفسق والفجور التي تطغَى مع عدمه ، وتقريراً لحق الزوجية التي يظل كثير من النساء محرومين منها في ظل نظام الزواج الفردي ، مع العلم بأن عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، وخصوصاً في الشعوب المحاربة ، وحفظا لنسب الأولاد الذين يتزايدون منه وحقوقهم ، فإنهم إذا ولدوا من نكاح غير شرعي لم يكن لهم نسب ، ولم يعترف لهم بحق ، وكل هذه العوائد وغيرها من الأسرار والحكم ، كان المبهورون بالمدنية الغربية يعمون عنها وينصرفون إلى انكار هذا التشريع ، وربما قالو بأن الاسلام يحرمه ضمناً لـلآيتين الكريمتين اللتين تقول احداهما : «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» وتقول الأخرى: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» وها نحن الآن نرى في المجتمع الأوربي والأمريكي أمر تعدد الزوجات يكاد يكون مسلماً به من الجميع وان لم يعترف به قانوناً ، فلا رئيس ولا مرؤوس الا وهو ذو حريم ، إنما هذا الحريم ليس له حرمة اجتماعية ، ولا حقوق مثل ما كان للحريم الاسلامي المحفوظ الكرامة المرعي الحقوق . وكم ترتفع الأصوات حينا بعد حين باستنكار هذه الحالة المرثية التي يعيش فيها هؤلاء الضحايا ، والمطالبة بايجاد تشريع يحفظ لهن كرامتهن ، ويحقق لهن أمنيتهن في الحياة ، وليس هو إلا الاعتراف بنظام تعدد الزوجات الذي لابد أنه سيوجد عما قريب ، وحينئذ يخجل هؤلاء المقلّدة الذين غرتهم المظاهر الخلابة ، فجعلوا من أنفسهم دعاة للباطل ، بينما أصحاب هذا الباطل يحاولون التخلص منه .

هكذا صار في أمر الجهاد واتهام الإسلام بأنه دين انتشر بالقوة ، وانتشر بالسيف ، كما روج ذلك خصومه ، بينما يقولون ان المسيحية دين رحمة ورفق ، لم ترق من أجلها قطرة دم ، ولا سل في سبيلها سيف من قِراب ، وقام كتابنا من أجل ذلك يحامون وينافحون ، فمن قائل أن الاسلام لم يحارب قط من أجل انتشاره لأنه «لا اكراه في الدين» ومن قائل أن شرعية الجهاد في الاسلام انما كانت للدفاع لا للهجوم «اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» إلى غير ذلك مما مبناه دائماً على المنطق المقلوب ، والقياس الفاسد الذي يقدمه لنا الخصم ، ولو كان واجبا علينا أن نأخذ بقياسه ونحكم بمنطقه لكلنا له بكيْله ، وضربناه بأحجاره ، فاستعرضنا المعارك الحامية التي خاضتها المسيحية في سبيل انتشارها وتوطيد أمرها في الشرق والغرب ،

ولا كنا ندعو إلى جعل الإسلام وشريعته هو المقياس الأساسي للحكم وصحة المبادىء ونمو المقاصد ، والاسلام ان كان شرع الجهاد للدفاع عن دعوته وحماية حقيقته واخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهدايتهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، فلقد تأيد الآن شرعه ، وتأكد حكمه بما تشنه أمم الحضارة المعاصرة من حروب للدفاع عن مبادئها وأنظارها، بل لإلزام الناس بهذه المبادئ والأنظار. فهذه حرب كوريا بين الأمم الديمقراطية والشيوعية أتت على الأخضر واليابس وحصدت نفوس الشعب الكوري البائس ، وخربت أرضه ودياره ، بكيفية فظيعة لم يتقدم لها مثيل ، وكلا الطرفين يزعم أنه يحارب عن مبادىء سامية ومثل عليا ، وما هو بمحارب الا عن نفوذه وسيطرته ، وإن تستر بستار انساني شريف ، والعجب أن تجتمع كل شعوب الأرض في هيأة الأمم المتحدة ، وتتداول في هذه الحرب فتؤيد طائفة من الشعوب هذه الجهة ، وتؤيد طائفة أخرى الجهة الثانية ، وهم على علم بما يرتكب في هذه الحرب من الفظائع التي ضجت منها الشياطين والأبالسة ، ولا يرتفع صوت منها بالاستنكار والاستفظاع ، ومنهم الذين يستنكرون على الاسلام أن يحمي دعوته بالسيف وهي كلها خير وبر ومعروف ، ويستفظعون أساليب الحرب الاسلامية وقد كانت من الرفق والعطف والمرحمة بحيث يصح أن نسميها حرباً ملائكية .

حقاً ان الحوادث تثبت صحة دعوة الاسلام بما لا تثبتها به الحجج البالغة ، والمقالات البليغة ، ومن ذا الذي لا يقول بأحقية حرب تنشب من أجل تعريف الناس بخالقهم وهدايتهم إلى طريق عبادته ومعاملة بعضهم لبعض بالحسنَى ، وتواصيهم بالحق ونصرة العدالة ، وهي مع ذلك حرب فيها انسانية كثيرة ، وتسامح عظيم على حرب كلها قسوة وعذاب وتدمير وسحق ومحق من أجل المادة والمادة فقط .

الا فلتخرس الألسنة الناطقة بالزور التي تلبس الحق بالباطل ، وتتهم البريء وتبرىء المتهم ، وليرحم الله شوقي إذ يقول في هذا الصدد .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذي خطر تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وان تلقه بالشر ينحسم

الآيـات التي تورَدُ في غيْر مَوْضعها

كثيرا ما نكون بسبيل المذاكرة العلمية مع بعض الاخوان ، فيوردون على سبيل الاستدلال بعض الآيات القرآنية التي لا صلة لها بالموضوع . وإذا نبهتهم إلى أن الآية لها مورد خاص تحمل عليه وتفسر به ، فلا يصح أن تكون حجة فيما نحن بصدده ، قالوا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذا صحيح فيما كان حكما عاما ، له سبب معين : أما ما لم يكن كذلك فيحمل على المراد منه ولا يتجاوز به محله وإلا وقع تعارض بين النصوص وأدى الأمر إلى اختلاف كبير.

ومن جملة ذلك هذه الآية الكريمة «ما فرطنا في الكتاب من شيء» فجمهور المفسرين على أن المراد بالكتاب فيها اللوح المحفوظ وهو الذي فيه بيان كل شيء كان أو يكون ؛ ومن حمله منهم على القرآن قيّد العموم في شيء بأن المراد منه شيء يحتاج إليه الخلق في أمورهم المعاشية والمعادية . على أن هذا التقييد نفسه بحاجة إلى تقييد آخر فان من المعلوم أن كثيراً من أمور الدين غير مبنية في القرآن فضلاً عن أمور الدنيا : فمثلاً الصلاة وهي أهم أمور الدين بعد التوحيد لم يبين فيه عددها ولا كيفيتها ولا شيء من تفصيلاتها التي بينتها السنة ، ولكن بما أن القرآن أثبت وجوب اتباع الرسول صار دالاً على ثبوت كل ما ورد في السنة ، فكان بذلك غير مفرط في شيء يرجع إليه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم . وإلى هذا الحد ينبغي أن ينتهى بعموم الآية إذا أريد بالكتاب القرآن . فاخواننا الذين يستشهدون بها على الجزئيات والدقائق من نظريات وأحكام ومخترعات ونواميس طبيعية وحوادث تاريخية وما إلى ذلك : زاعمين أن القرآن أشار إليها بالتصريح أو بالتلميح ، وانه لا يخلو من الدلالة على كل ما جد أو يجد في الكون من هذه الأمور ، محملين لكثير من ألفاظه ما ليس يحمله إلا على كثير من التمحل والتكلف ، إنما يذهبون في غير مذهب ، ويتقولون على الله عز وجل وكتابه العزيز ما لم يقله . وهذا قول الباطنية الذين زعموا أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وان الظاهر هو حظ العوامّ من هدايته ، والباطن وقد يحتوي على الغيوب والأسرار والمعارف الربانية خاص بأهل نحلتهم لا

يطلع عليه غيرهم . فمن يريد اليوم أن يحمل القرآن الكريم هذه الدلالات البعيدة ويطبقه على كل حادثة وكل جزئية مما لا يتعلق بأصل تنزيله إنما يذهب مذهب هؤلاء الباطنية المبتدعين .

وأصل تنزيل القرآن هو هداية الخلق إلى عبادة الحق ، وارشادهم إلى تزكية نفوسهم ، واصلاح ظواهرهم وبواطنهم ، وعدم تعدي الحدود التي يقع في تعديها ضرر بالنفس وضرار بالغير ، والائتمار بالمعروف ، والتناهي عن المنكر ؛ وما عدا هذا فكله غير مقصود بالذات ولا مأمور به لعينه ؛ فكيف تكون آيات القرآن دالة على هذه الأشياء التي لم يتعلق بها غرض أصلي من تنزيله ، وهي عرضة للتبديل والتغيير ، ولا تبديل لكلمات الله .

ومما يحسن ايراده هنا هذان البيتان اللذان كان الشيخ الوالد رحمه الله ينشدنا اياهما كثيراً في بيان مراد القرآن الكريم :

مراد كتاب الله جذب قلوبنا إلى حضرة القدوس والزهد في الدنيا
فاعط أخي القرآن منك مراده لترقى بفضل الله للذروة العليا

ومن هذه الآيات التي يقع الاستشهاد بها كثيرا في غير موضعها قوله تعالى : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» ويكفينا في بيان المراد بها حديث رواه أبو داود عن أسلم أبي عمران قال : غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو فقال : مه ، مه لا إله إلا الله يلقي بيديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب رضي الله عنه : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام ، قلنا : هلم نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، فأنزل الله «وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» فالالقاء بالأيدي إلى التهلكة ، أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية .

وآية أخرى من هذا القبيل اتخذها عامة الناس حجة في السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وما هي بحجة في هذا الباب قط ، وإلا ناقضت بقية النصوص من كتاب وسنة وإجماع ، وهي قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وقد ورد تصحيح هذا الفهم الخاطىء

في السنة ، فروى الترمذي وأبو داود وابن ماجة وغيرهم أن أبا بكر الصديق قرأ هذه الآية : «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال : ان الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها ، الا واني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ان القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، والمنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقابه» ومن غرائب هذا الباب الاحتجاج بقوله تعالى «وحصل ما في الصدور» على معنى قول القائل :

ليس بعلم ما حوى القمطر　　ما العلم إلا ما حواه الصدر

وهذا لا يصدر الا من عوام الطلبة ، فإن أول الآية وآخرها شاهدان بأن المراد منها كشف الضمائر واظهار السرائر في الآخرة يوم البعث والحساب ، وذلك كما ورد في الآية الأخرى «يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر».

ومن هذا الاستدلال العامي ما يزعمه بعض الجهلاء من أن الأمة غير مطالبة بقراءة القرآن كله ، مستدلين على ذلك بقوله تعالى «فأقراوا ما تيسر من القرآن» وما عرف هؤلاء ان الآية واردة في التهجد وقراءة القرآن في الصلاة بدليل ما قبلها وما بعدها ، وقد نسوا قوله تعالى «وقال الرسول يارب ، ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا» فلم يكفهم أن يتركوه غافلين لاهين ، حتّى أرادوا أن يتركوه عامدين مصرين ، مستدلين بما لا حجة فيه الا على المتهاونين المفرطين . فانا لله وإنا إليه راجعون من تحكم الجهل وفساد العقيدة في هذا الزمن الذي أصبح كل شيء فيه تابعا للهوى حتّى أمور الدين .

*

غربة الإسْلام بين أهله

عن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ قال: بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء »، رواه مسلم.

ولا نلتمس ما صدق الحديث فيما عليه عامة المسلمين اليوم من الجهل بأصول دينهم ، وانحرافهم عن طريقه المستقيم ، وإنما نخلص الى العبرة في ذلك من استعراض أحوال بعض الخاصة ، ليعلم أن هذا الدين الحنيف أصبح من الغربة بحيث يتنكر له أهله ومن هم مظنة لأن يبروه. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أقيمت بجواري ليلة ذكر وسماع من إحدى الطرق الصوفية ، فلما تحريت عن البيت الذي أقيمت فيه وجدته بيتاً لامرأة شابة لا زوج لها وليست من المؤمنات الغافلات.

وأمر في طريقي إلى مكان عملي بملهى أجنبي ، من هذه البيوت التي تفتح في الليل وتغلق في النهار. وأقل ما يمكن أن يقال فيه أنه محل رقص وشرب للخمر ، فألمح ببابه شيخاً أعرف نسبته إلى إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في المغرب بكثرة ، ولما سألت عنه قيل لي إنه يعمل هناك بصفة حارس...ففكرت في حال هذا «المريد» الذي لم يلقن أول واجب عليه حين ارادته «السلوك» من ترك الحرام واجتناب الشبهات.

يحفظ بطنه من الحرام يترك ما شُبِّه باهتمام

وفكرت في «جماعة الفقراء» الذين لبوا دعوة امرأة لا كافل لها ولا دخل لها من وجه معلوم ، فقلت هذان مثالان من غربة الاسلام بين خاصة أهله ، فكيف تراه يكون بين العامة والدهماء ممن لا مربي لهم ولا مرشد ، كما لأهل الطرق والمتصوفة الذين الشأن فيهم أن يكونوا أكثر تمسكاً بالأصول وتجنباً للأهواء؟.

ثم تذكرت حال فقيه من فقهاء المسلمين يفتي الناس ويعلم الطلبة ، ويتعاطى

الشهادة وهو يتعامل بالربَى على أشنع وجه وأخنع وصف ، فكيف تقوم للمسلمين قائمة ، ما دام حملة شريعتهم هم أول من يحاربها على علم منهم بأن الله عز وجل قد آذنهم هو ورسوله بالحرب لذلك :

ولم يرد في سائر الذنوب ما جاء في الربَى من الحروب
ومن يطيقُ حرب رب قاهر مع رسوله الكريم الطاهر؟

وأخيرا هذا رجل من أهل النسب والعلم والنسبة يسافر إلى عاصمة بلاد مسيحية ليشرفه رئيسها بتوسيمه بأكبر وسام صليبي في دولته ، وقد كان له عذر من كبره وثقل حاله حتَّى عن النفر والجهاد فكيف بما ذكرناه من ذلك المراد؟..

إنه رجل كما قلنا من أهل النسب الشريف ، يكاد من اعتزازه بنسبه يرى كل نسيب غيره دعياً ، ناسياً قوله تعالى لسيدنا نوح عليه السلام في ولده لصلبه «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» فالنسب بالنسبة إليه قد رفع كما ترفع الأمانة ويرفع العلم وترفع الصلاة .

وهو كما قلنا من أهل العلم ، ولعله لا يرضى إلا أن يكون أكبر علماء الاسلام ، بل انه أفرط في دعواه هذه ، فلم يبق له إلا أن يدعي العلم الإحاطي وتعالى الله عن الشركاء والأنداد .

وهو أيضاً من أهل النسبة إلى الطريق ، بل هو شيخها ورئيس (جامعتها) ولكنها نسبة هذا الزمان التي تتنافس في كثرة الأتباع والأصحاب ، لا في المعرفة والسلوك ، فقد ادعى أو ادعي له أن «فقراءه» يبلغون ثلاثة ملايين ، وكان يكفيه لو عرف الطريق واحد من كل مليون فإن ابن مشيش لم يستطع أن يربي تربية كاملة الا أبا الحسن الشاذلي رحمهما الله .

وعلى كل حال كيف فات عالم الاسلام قول علماء الإسلام في حمل الزنار والصليب وما إليهما من هذه الشارات التي هي شعار للمسيحية خاص بها لا يجهله أحد؟ ـ :

ولا تكفرن إلا بالشرع وضابط التفكير فيه مرعي
وهو اعتقاده أو التكذيب لشيء جاءنا به الحبيب
أو التهيؤ بهيئة الكفار لا غير ذا من كل ذنب لا تضار

إن وسام (لاكران كروا) معناه الصليب الأكبر، وتسميته بالوشاح الأكبر انما هو مغالطة استعمارية دبرها التراجمة المأجورون.

ومع ذلك إذا تساهل العلم والفقه الحديث ــ فكيف يتساهل التصوف وادعاء المشيخة فيه وهو من أوله إلى آخره ورع وتقوى واستيحاش من الحياة الفانية وشوق إلى الحياة الباقية.

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

أما والله انها لغربة ما بعدها غربة؛ للاسلام الطريد بين أهله، الشريد عن موطنه، فلا تكشف كربته ولا ترجى عودته، الا أن يراجع المسلمون سيرة سلفهم الصالح، ويتمسكوا بدعوة كتابهم العزيز، ويعملوا بسنة نبيهم الكريم، آخذين في ذلك بعزم الأمور، متجنبين الترخص والتأويل قادرين قدر الرسالة التي اصطفاهم الله لتبليغها إلى كافة البشر «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» «وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» والله المسؤول ان يلهم المسلمين رشدهم، ويقيهم شر أنفسهم، ويصلح حالهم، ويفتح بصيرتهم للخير، ويعيد عزهم كما بدأ. آمين.

❀

شهــرُ الثَّـوْرة

هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدَى والفرقان. كان إنزال القرآن فيه أعظم ثورة عرفها البشر على الأوضاع البالية والأفكار الرجعية والظلم والظلام ونكسة الأخلاق التي زعزعت كيان المجتمع، فصار مهدداً بالتصدع والانحلال. وإذا كانت هذه العلل والأمراض متفشية في جميع الأوساط من جميع الشعوب، فإن الثورة عليها لم تكن ثورة محلية ولا اقليمية كالمعروف في سائر الثورات التاريخية، وإنما كانت ثورة عالمية انبعثت شرارتها الأولى من قلب جزيرة العرب، ولم يمض عليها ربع قرن حتَّى كانت قد طبقت أنحاء العالم، وترامت إلى أقصَى الشرق والغرب فقومت المنآد، وأصلحت الفاسد، ونورت الأفكار، وهدت الطريق نحو الرشد والفلاح.

إنها دعوة القرآن التي ضربت على أيدي الظالمين، وكبحت جماح المستبدين، وحولت اتجاه الانسانية من عبودية مستخذية، وجاهلية رعناء، إلى حياة العز والشرف، والعلم والعرفان.

توجهت هذه الدعوة في رمضان، فكان لذلك شهر الثورة، واحتفظت فيه بمعالمها لتتجدد بتجدده كل سنة فمن آثارها هذا الصيام وهذا القيام وهذه الروحانية الخاصة بشهر رمضان.

ان الامتناع عن الأكل والشرب وما إليهما في أيام رمضان، إنما هو ثورة على تحكم العادة والغريزة في الانسان الذي ألف أن يأكل في أوقات معينة ولو لم يشعر بالجوع، ويشرب ما شاء في أي وقت شاء، ويباشر من اللذات كل ما زينته له نفسه الأمارة بالسوء، لا يراعي في ذلك حداً معلوماً ولا قانوناً مرسوماً، حتَّى قواعد تدبير الصحة، لا يبالي أن يلقي بها عرض الحائط ازاء إشباع نهمته وإرواء غلته، وهو يعلم أن في ذلك هلاكه وانقطاع مادته، فأحرى أن يبالي بتدبير انسانيته وتكميلها بالتزام قوانين الخلق الكريم وما تدعو إليه تزكية النفس من اتباع الصراط

المستقيم ، فكان الصيام قيداً مانعاً له من التصرف كما يهوى وحكماً نافذاً عليه بضبط النفس وعدم ارخاء العنان لها في كل ميدان ، أو قل هو تلقين لمبادئ الثورة على هذا الاسراف وهذا التبذير لقوى الحياة وطاقتها السريعة النفاذ ، ودرس عملي في هذه الثورة يمكن الانسان من زمام نفسه ، ويجعله غير قابل حكماً الا لخالقه وباريه عز وجل .

ولقد عبر عن هذا المعنى شاعر هُذَيل أبو خِراش بما لا مزيد عليه من البيان والوضوح ، وهو الذي شاهد ما أدخلته الثورة الاسلامية على أساليب الحياة من التحوير والاصلاح لخير الانسانية ، وعاش في العهدين الجاهلي والاسلامي فشعر بما بينهما من فرق عظيم ، هو الفرق بين الحرية والاستعباد ، والنور والظلمة ، ومن ثم قال :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتَى كالكهل ليس بقائل ... سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل

نعم أحاطت بالرقاب السلاسل . ولكنها سلاسل الفضيلة والخلق والمسؤولية الاجتماعية التي تسوي بين الفتَى والكهل في خدمة الصالح العام ، والنهوض بالأمة إلى مستويات العز والمجد والسؤدد ، ألا ترى كيف سيطر الحق على نفوس الجميع فصار كل واحد عبداً للحق ، لا يقول إلا به ، ولا يخضع الا له؟

وهذا غاية ما تؤدي إليه أعظم الثورات نجاحاً وأسماها فكرة وأقومها طريقاً . وأما القيام فهو كما يريده الاسلام للصائم ، مظهر من مظاهر الثورة على الراحة والكسل والتناوم فضلاً عما فيه من صفاء الروح وزكاء النفس لأن عبادة التهجد من أفضل وسائل القرب إلى عالم الملكوت وهي ان كانت مندوبة في كل ليالي العام ، ففي رمضان تتاح لها الفرصة التي لا تتاح في غيره بهذا السهر المحتوم على الصائم لتناول طعام الفطور والسحور وما يتخلل ذلك أو يستلزمه من فترات الاستجمام والرياضة والاستعداد ، على أن القيام بهذا المعنَى كان ولا يزال من نصيب الخاشعين من المؤمنين . وأما العوام فقيامهم سهر ولهو وترفيه وهو مع ذلك لا يخلو من معنَى الثورة على المألوف ، فإن المسلم بصدد السعي والعمل والجهاد لاعلاء كلمة الاسلام ، وطلب العلم ونصرة الحق ، ولابد أن تعترضه المشاق ، ويضطر لاقتحام المخاطر في سبيل ذلك ، وأقلها أن يجوع ويظمأ ويسهر ؛ ففي صيام رمضان وقيامه تمرين له على ذلك وتهييء واعداد .

كما أن روحانية الاسلام التي تتجلّى في رمضان أكثر من غيره ، هي أيضا دعوة إلى الثورة على مادية الحياة ، وتجربة عملية للانسلاخ من أوضارها المعنوية ، فإن كثيراً من الرذائل الاجتماعية التي لا يتحاشى الناس عنها عادة ، تصبح في رمضان كما هي في الحقيقة «رذائل» يتجنبها الناس ، أو ينبه بعضهم بعضاً إلى الكف عنها بعد الوقوع فيها ، لأن طهارة رمضان تتنافى ودنسها الذي يبرزه الصيام أسمج ما يكون ، واعتبر ذلك في الغيبة مثلاً أو في الشجار ينشب بين الرجلين ، فتجد الناس يسرعون إلى زجر المغتاب ، وكف المتشاجرين مذكرين بحرمة رمضان وحق الصيام.

فيا حبذا لو أدرك المسلمون ما في هذا الشهر الكريم من دعوة إلى التربية الروحية وجهاد النفس الذي هو الجهاد الأكبر ، ووعوا ما في تعاليمه السامية من دروس وعبر ، هي الثورة بمعناها الأكمل على كل خلق ذميم وسلوك معوج ، اذن لأشربوا حب الإيمان والفضيلة ، ولتحرروا من قيد الهوى وسجن العادة والله الموفق.



القرآن الكريم في ورقة

أهدى إلي أحد الأصدقاء المقيمين في مصر هدية قيمة في حد ذاتها ، وهي ورقة طولها ثمانون سنتيمتراً وعرضها أربعون ، محتوية على النص الكامل لكتاب الله عز وجل من سورة الفاتحة إلى سورة الناس .

وهي من عمل أحد الخطاطين البارعين ، وقد استغرق في كتابتها ستة أشهر ، وأجازتها مشيخة القراء المصرية بتاريخ ثاني حجة الحرام متم عام 1370 وخطها جميل ، ولكنه دقيق جداً ، بحيث لا يكاد يقرأ بالعين المجردة ولا يفهم منه إلا البسملة واسم السورة الذي كتب بالأحمر ، فكان كالعلامة الفاصلة بين دبيب النمل هذا ، الذي يسمى خَطّاً ، ناهيك بأن الفاتحة لا تشغل أكثر من خمسة سنتيمات من السطر الأول ، وأن سورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن لم تختص من الورقة بأكثر من 18 سطراً ، وان السطر الذي قبل الأخير من الورقة يشتمل على تسع سور وهي العصر والهمزة والفيل وقريش والماعون والكوثر والكافرون والنصر واللهب مع اسم سورة الإخلاص وبسملتها .

ولما وصلتني هذه الهدية تحيرت ماذا أعمل بها ، هل أضعها في إطار واعلقها في صدر البيت ، كما يفعل الناس بصور أحبائهم وأعز الناس عليهم وصور العظماء والزعماء؟ أم أثنيها في حافظة من الجلد المرقق المنعم تسيطراً وتذهيباً وأحملها معي تيمنا وتبركاً إن لم يكن تحصناً وتمنعاً؟ أم أضيفها إلى نوادر المخطوطات وغرائب المحفوظات من التحف الفنية والاعلاق الأدبية التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويحرص على مثلها أصحاب الهوايات ...أم ماذا؟...

وعلم الله أني لا أقول هذا الكلام تمشدقاً ولا تفيهقاً ، وإنما هو أمر أهمني وأجلت الفكر فيه على جميع الوجوه ، فلم أهتد فيه إلى طريق أتبعها ولا عرفت له مأخذاً آخذ به . وقد كان اعتقادي — ولا يزال — ان هذا الكتاب العزيز انزل إلى الناس ليقرأوه ويتفهموه ويعملوا به ويهتدوا بهديه ، وأنه رسالة عامة لجميع البشر

تعرفهم بواجباتهم ازاء الخالق عز وجل وازاء أنفسهم ، وطريق معاملة بعضهم لبعض ، وكيف يعرجون معارج الكمال ويظهرون على مستوى القرب من ذي العزة والجلال ، كما قال تعالى «ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً» وقال عز وجل من قائل : «هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكّر أولوا الألباب» وقال سبحانه : «أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» وقال جل جلاله : «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب» إلى غير ذلك من الآيات العديدة التي تفيد أن المقصود من التنزيل هو التدبر والاعتبار والانتهاء عما نهَى عنه والائتمار بما أمر به ، والتخلق بأخلاقه كما قالت عائشة (رض) في النبي ﷺ كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويغضب لغضبه .

ومعلوم أن ذلك انما يكون بقراءاته وتلاوته وتفهم كلمه وتأمل معانيه حتَّى ينفذ الخطاب الكريم إلى الذهن والقلب ، ويمتزج مدلوله باللحم والدم فتنبعث الجوارح إلى العمل بمقتضاه ، وتشرق النفس بنوره المبين ، ولا تسل عما ينشأ عن ذلك من خير وصلاح للفرد والمجموع ، وذلك هو المراد من هذه الرسالة الالهية الخالدة التي نعلم كلنا أنها أعظم معجزة أوتيها نبي للدلالة على صدقه وتزكية دعواه انه رسول الله .

وهل يتأتى هذا المراد بتعليق القرآن على الجدران؟ أو بحمله مغلفاً بين طيات الثوب؟ أو بعرضه على الأنظار وقد جمع في ورقة واحدة تعجيباً من براعة كاتبه؟

اللهم لا ..وانني أخشَى إذا فعلت شيئاً من ذلك أن أكون ممن قال فيهم الكتاب العزيز : «وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً» وان أكون مم يعنيهم القائل :

... ... كأنني مصحف في بيت زنديق

بل انني أخشَى أن أكون من أفراد المقول فيهم ذلك حتَّى بالنسبة للمصاحف العادية التي عندي ، فأحب أن أقرأ فيها كلها لئلا يصدق على واحد منها أنها في بيت زنديق ، فكيف اذن يمكنني أن أتجنب ذلك بالنسبة إلى هذه الورقة التي تمتنع القراءة فيها ، وهي مع ذلك مصحف كريم؟

لا ياسيدي المهدي . لقد أخطأت موضع الهدية ، وأوقعت هذا المهدى إليه في

حرج شديد يغفره الله لك، لأنك حسن النية جميل المقصد، وإنما الأعمال بالنيات، بل ياسيدي الكاتب انك أنت وحدك المسؤول عن هذه المخالفة وما ينشأ عنها من صد عن كتاب الله، ومن نسك أعجمي يكتفي بالقشر عن اللباب. ولو عرفت ما تؤدي إليه من عكس المراد لتجنبتها جهدك؛ إذ الظن بك جميل، وحاشى لله أن ألزمك القول بما يقتضيه هذا الفعل من أنه لغو في كتاب الله أشارت إليه الآية الكريمة، اشارة لا تسر المؤمن حيث قالت: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه». أليس المؤدى واحداً وهو الصرف عن الكتاب بأي وسيلة كان؟[1].

وإني أرى أن حبك للقرآن الكريم هو الذي حملك على هذا الصنيع، والحب لابد أن يوزن بميزان الشرع فما وافقه فهو محمود، وما خالفه فهو مذموم، وقد قال عمر بن عبد العزيز (رض) «الهوى الموافق للحق شهدة يزيد» فغاية الأمر أن تكون اجتهدت وأخطأت فلك أجر الاجتهاد وليس عليك وزر الخطأ.

وأنا أرجو أن أكون أعذرت إليك بهذه الكلمة، وان يكون حبك للحق باعثاً لك على التبصر في هذا الأمر، والله يتجاوز عن ثلاثتنا أنا المهدى إليه والمهدي وأنت الكاتب، بمنه وكرمه آمين.

---

(1) في كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي فصل في آداب كتابة المصحف مال فيه إلى كراهة كتابته في الشيء الصغير ومشق خطه وتعليقه ونقل في ذلك نقولا عن السلف الصالح والصحابة (رض) من عمر وعلي وغيرهما فلينظر.

إنه دِيــنُ الرّحمة

لا أدري أين قرأت لأحد الكتاب المسلمين محادثة جرت بينه وبين جماعة من الشباب المسيحيين في أوربا حول الإسلام ومبادئه وتعاليمه . وكان مما تضمنته تلك المحادثة ، سؤال إحدى الفتيات له عن الكلمة التي يمكن أن يعبر بها عن الهدف الأسمى للإسلام كدعوة خلقية ، وتقابل الكلمة التي يعبر بها في المسيحية عن ذلك الهدف وهي كلمة المحبة ، إذ يقال في المسيحية انها دين المحبة . ويقول الكاتب الذي لا أذكر اسمه انه فوجىء بهذا السؤال أولاً ، ثم فكر وأجاب بكلمتين أظنهما العدل والاخاء .

وليعذرني حضرته إذا أنا لم أستوعب كلامه ، فإني لم اهتم بالموضوع أولاً كما حصل له تماماً ، ثم فكرت فيه بعد ذلك فرأيته من الأهمية بمكان . وإني لو سئلت هذا السؤال لأجبت عنه بما يخالف جوابه شكلاً وموضوعاً . أما من ناحية الشكل فإن المطلوب هو كلمة واحدة تعبر عن الفكرة الاسلامية في هذا الصدد ، وتقابل الكلمة التي تعبر عن الفكرة المسيحية فيه وهي واحدة ، على حين أن هذا الجواب يشتمل على كلمتين اثنتين .

وأما من ناحية الموضوع فإن المسؤول عنه هو السمة الخلقية التي تغلب على الدعوة الإسلامة ، وهذا الذي ذكره هو جواب عن الاتجاه السياسي للإسلام ، الذي نستطيع أن نعبر عنه بكلمة واحدة هي أدل على المراد من الكلمتين معاً ، وهي السلام . فالإسلام من هذه الناحية هو دين السلام ، وعلى كل حال فليس ذلك بالجواب الذي يطابق السؤال لفظاً ومعنى ، ويصح أن يقال انه الشعار الخلقي للمسلمين ، كما يقال ان المحبة هي الشعار الخلقي للمسيحيين والجواب الصحيح في نظري هو الرحمة ، فمن أراد أن يعرف الاسلام تعريفاً خلقياً فليقل : «إنه دين الرحمة».

ألم يبعث الله رسوله رحمة للعالمين؟

ألم يفتتح كتابه بالبسملة وهي أربع كلمات، اثنتان منها هما الرحمان الرحيم؟

بلى وان في أحاديث الرسول وآيات الكتاب لمجالاً رحباً وذيلا سحبا لمن أراد أن يفيض الكلام في هذا الموضوع الخصب.

فالرسول ﷺ يقول ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب على نفسه، ان رحمتي تغلب غضبي، والكتاب العزيز يقول تصديقاً لذلك ورحمتي وسعت كل شيء. ثم انك لا تقرأ سورة من سور القرآن الا وكانت البسملة أول ما تقرأ فيها عدا براءه التي نزلت بالسيف، بل هذه الفاتحة لا تقرأ بسم الله الرحمان الرحيم أولها حتّى تجد هذين الوصفين الكريمين، هما ثاني آية منها، فالحمد لله رب العالمين تليها مباشرة الرحمان الرحيم.

ويتكرر وصفه تعالى بالرحمة في غير ما آية من الذكر الحكيم، ولعل أرجى آية في القرآن هي كما يقول العلماء قوله تعالى «قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم».

ولا يخفى أن دلالة هذه الآيات الكريمة هي تعظيم شأن الرحمة والحض على التخلق بها، لأنها وصف الله عز وجل الذي يطمع جميع الخلق في أن يعاملهم به لينجوا من العذاب، وإلا فلا نجاة لأحد لأنهم جميعاً مذنبون خطّاؤون ولا يقوم إحسان أحد باساءته، ولا عمله بتقصيره أبداً، ومن ثم كان دخول الجنة للطائع والعاصي معا برحمة الله، وتتفاوت المراتب فيها بالأعمال.

ويرشد الرسول ﷺ إلى هذا المعنَى من أن التخلق بالرحمة هو السبيل الوحيد للحصول عليها فيقول: من لا يرحم لا يرحم، ويقول: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

ولا تخص دعوة الاسلام الرحمة بطبقة من الناس، بل تعم الجميع وتشمل الحيوانات أيضاً، فعن عمر (رض) قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة تحلّب ثديُها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ فقلنا لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال: لَلّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها.

وروي عنه ﷺ أنه قال: بينما رجل يمشي اشتد عليه العطش، فوجد بيراً

فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البير فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ، فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر ، وروي أيضاً أنه قال : دخلت امرأة النار في هرة ، حبستها ، فلا هي أطعمتها وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .

فهذا رجل جوزي بسبب كلب رحمه ، وهذه امرأة عوقبت بسبب عدم رحمتها للهرة ، فالمدار على الرحمة وجوداً وعدما .

ولعل هذا كله لا يبين المدى البعيد الذي تصل إليه الرحمة الإلهية كما بينها حديث شريف يذكر ما أعده الله في خزائنه لعباده من هذا الكنز الثمين ، وإنه لحكم على طبيعة هذه الدعوة الإسلامية بأنها للرحمة أولاً وأخيراً وهذا الحديث هو قوله ﷺ جعل الله الرحمة في مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتّى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

وبعد فما هي نسبة المحبة من الرحمة أو ما هو الفرق بين الشعارين ، إن كان لابد من اعتبار الفارق بينهما؟

لا شك أن الرحمة أهم من المحبة ، فأنت ترحم وان لم تحب ، وبذلك يكون الشعار الإسلامي أكثر انسجاماً مع دعوته التي هي دعوة عامة لجميع الخلق ، بخلاف الشعار المسيحي الذي لا يمكن أن يطبق الا على من يستطيع الانسان أن يحبهم ، وبعبارة أخرى ان الاسلام لم يهمل المحبة ، كيف وقد قال نبيه ﷺ لا يؤمن أحدكم حتّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ولكنه دعا إلى الرحمة أكثر مما دعا إلى المحبة ، علماً بأن الرحمة أدنَى منالاً من البشر وأعم مفعولاً ، ولأنها أيضاً هي المراد من المحبة لا المحبة ذاتها ، فقد تنحرف المحبة عن سبيلها ولا تؤتي الثمرة المطلوبة التي هي الرحمة كما وقع لديك الجن(2) الذي أحرق محبوبه واتخذ من رماده كأساً كان يشرب بها ويغني ما قاله من الشعر في ذلك المحبوب .

---

(2) شاعر عباسي معروف من أهل البشام ، اسمه عبد السلام بن رغبان .

ولعل هذا المثال هو أقرب ما يكون من محبة بعض الأمم المسيحية لأخوانهم في الانسانية بل وفي الدين ويرحم الله شوقي إذ يقول في هذا المعنَى :

(عيسَى) سبيلك رحمة ومحبة | في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأً | هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى | كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم | رحما ، وباسمك تقطع الأرحام

*

من حَديث الحـج

حدثني أحد الأصدقاء عن شاب كنت أكبره في نفسي ، ولا تسنح فرصة لذكره الا نوهت به وضربته مثلاً لأقرانه في الذكاء والاجتهاد ، وكونه حصل على ثقافة ممتازة في فتاء من العمر ، وإقبال من الدهر . فقال صديقي إنه شاب منحرف السيرة ، مستهتر بالقيم الأخلاقية ، وان أهله يعانون منه أنانية رعناء ، وهو لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة . ومن جملة ما حدثني به صديقي عن هذا الشاب أنه قال لأحد أقربائه وهو يتأهب للحج ، إنه يتعجب من تفكير الناس في الحج وهم يعيشون في القرن العشرين ، يعني أن الحج لم يبق له مجال في هذا العصر ، فينبغي أن يحذف من قائمة الشعائر الدينية .

ولقد ساءني هذا الذي سمعته عن ذلك الشاب النابغة مما لم أكن أظن أنه ينطوي عليه من الأفكار الناشزة والسلوك الملتوي ، ولكني لم أيأس منه ، ولم أشك في أنه سيراجع يوماً ما السيرة الخلقية المثلى اللائقة به وبأمثاله من ذوي الفكر النير والذهن الوقاد ، وانه لابد أن يصحح أفكاره هذه التي تمليها عليه فورة الدم وثورة الشباب التي قلما ينجو منها أحد إلا من أخذ الله بيده ، فوهب له مرشداً حصيفا ومربياً عاقلا يجنبه مواطن العثار ويبصره بمسالك النجاة . وصاحبنا الشاب نشأ يتيما . وفقد رعاية الأبوة الحكيمة منذ نعومة أظفاره ، فلا جرم أن تلفحه نار المجتمع الموبوء الذي يعيش فيه .

وبقدر ما ساءني خبر هذا الشاب ، سررت بخبر شاب آخر ، وأسميه شابا مجاراة لاصطلاح العصر ، لأن الرجل ما دام غير ملتح ولم تظهر عليه علامات الشيخوخة والهرم ، فهو شاب في هذا الاصطلاح ، وأن رغم أنف الأربعين والخمسين . . .

نشأ بغير أب في حضن أم متزوجة بأحد قواد العسكر ، فهو تربية الثكن العسكرية ، وتلقى تعلما ابتر في احدى المدارس الاستعمارية المسماة مغربية مجازاً ، ولم يزل قرين كل بطال ورفيق كل مستهتر ، وزاد على ذلك أنه يرى الخجل ضعفاً

والاستقامة حرماناً ، وان الدين عنده حديث خرافة ، وأنه ما رآه أحد في مسجد قط ، ولا محتفلاً بعيد من أعياد المسلمين .

ولعل أعظم ما يؤمن به في هذه الحياة هو المال ، فهو يجري وراءه بكل ما أوتي من قوة وما لديه من حرص ، ولا يبالي في سبيل الحصول عليه بقانون سماوي أو وضعي .

هذا «الشاب» كان فيمن اكتروا باخرة للحجاج عام أول ، ونحن نعلم القيمة الخلقية لهؤلاء الذين يتاجرون في الشعائر الدينية ، ويستغلون شعور الجماعات المؤمنة للربح المادي الفاحش ، الذي لا يخضع لرقابة حكومة ولا ضمير .

ولقد سارت الباخرة على علاتها تحمل حجاج بيت الله ، فوصلت إلى جدة ، ولا يدري أحد كيف وصلت ، ولَاقَى الحجاجُ الأبرار من سوء المعاملة ما احتسبوه عند الله ، وما إن لاحت لهم الأرض المقدسة ، وانغمروا في الأمواج البشرية المختلفة الألسنة والألوان ، الوافدة من كل الأقاليم والبلدان ، حتَّى نسوا تعبهم ، وسامحوا مستغليهم واعرضوا عن الدنيا وغرورها ، وأقبلوا على تزكية نفوسهم وتنوير بواطنهم ، واجتلاء المعاني الروحية التي تضمحل عندها مادية الحياة فتصير لفظاً بلا مدلول .

وأحسَّ صاحبنا بعظمة الموقف ، وخجل من نفسه لأول مرة في حياته ، فاندمج في جملة الحجاج ، واندفع مع الملبين . وهذا هو الخبر الذي حُكِي لي عنه وسرني غاية السرور .

قال لي محدثي وقد سأله كيف رايت الحج فأجابه «أنا الذي هو أنا» لم أشعر إلا وقد استولى علي روح قدسي ملأ قلبي بالإيمان وعرفت أن هناك شيئاً غير المال ومتع الحياة .

وهذه الكلمة التي عبر بها عن نفسه «أنا الذي هو أنا» هي بمجردها تراجع عما كان عليه من خطأ وإسراف واعتراف بالحوبة ممن لم يكن يرى في الدنيا شيئاً يتحاشى عنه .

إنه لغزو عظيم فُتِحت به نفس هذا البائس ، فأصبح يتطلع إلى أفق السعادة الأبدية من وراء الغيوم ، غيوم المادية والالحاد وزهرة الحياة الفانية ، وليس سببه الا الحج ، والحج الذي لم يوطن عليه نفساً ولا قصد إليه بإيمان وشوق. ولقد كان

من نتيجته المحمودة أنه لم يغامر في هذا العام مع المغامرين بكراء باخرة الحجاج ، ولم يقتحم لجة هذه الصفقة الاستغلالية الربوية ، فجوزي على قدر نيته بأن حمته الأقدار الإلهية مما وقع فيه المستغلون من خسارة وفضيحة .

ونحن إذا حكينا قصة هذا «الشاب» أو الكهل الذي شب واكتهل في حمأة الشر وبؤرة الفساد ، فإنما نريد أن ندلك على أن عاقبة فتانا الأول خير ان شاء الله ، وأنه لابد أن ينظر إلى الحج وإلى غيره من الشعائر الدينية بالعين المجردة عن المصالح المادية والأهواء النفسية ، وإنه لا بد أن يفتح عليه كما فتح على صاحبه ، وليس هو شرا من صاحبه على كل حال ، نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا ويغفر لنا بمنه .



مشيَخة الطريق منصبٌ لا يورث
ولا يوليه السلطان

هكذا يقول السلطان مولاي سليمان في رسالته إلى أبناء الشيخ سيدي العربي بن المعطي الشرقاوي

لما توفي الشيخ سيدي العربي بن المعطي بن الصالح الشرقاوي — وهو الذي خلف والده على زاويتهم المشهورة بأبي الجعد ، وكانت وفاته بالوباء العام سنة 1234 — كتب أبناؤه إلى السلطان العالم المصلح مولاي سليمان العلوي يسألونه أن يعين خلفه من بينهم ، ويوليه رئاسة الزاوية — على ما يفهم من الرسالة السليمانية التي أجابهم بها السلطان المذكور — ولكن السلطان العالم الذي يعرف أن مثل هذا المنصب الديني إنما ينال بالعلم والعمل والمجاهدة والتجرد عن الدنيا ، أجابهم بأن هذا الأمر ليس بيده ، وأنهم ان شاءوا أن يخلفوا أسلافهم فعليهم بالتقوى والعمل الصالح والسلوك على المنهج الواضح الذي سلكه مِن قبلهم ، فنالوا ما نالوه من المعرفة والرسوخ ومقامات الكُمَّلِ من رجال الدين .

إنه بذل لهم النصيحة وهداهم إلى أقرب الطرق الموصلة للمطلوب ، ولم يغرر بهم ويساعدهم على مرادهم ، لعلمه وقوة دينه وإخلاصه في ذات الله .

ولو لم يفعل لكانت فتنة وفساد كبير ، كما نراه اليوم في كثير من هذه المناصب الدينية التي ورثها الجهال عن آبائهم ، كالإمامة والخطابة والوعظ والتدريس . فأما من تولاها منهم بنفسه ، فقد كشف عن عواره ، وقضَى على روح هذه الوظائف ، وأبقَى صورها فقط ، وذلك هو المسخ بعينيه . وأما من أولاها للغير . فقد مسخها مسخاً ثانيا بفقدان الروح والصورة معاً .

وماذا يهمه أن يؤم الناس إمام فاقد الشروط ، وأن يخطبهم خطيب مُنوِّم لا يدري ما يقول ، وان يعلمهم من لم يزل في حاجة إلى التعليم ، ما دام هو يأخذ المرتب ويدفع منه قدراً ضئيلاً لهذا النائب الذي هو إحدى النُّوَب على الإسلام والمسلمين .

أجل ، ان مولاي سليمان رحمه الله عرف ما في انتهاج هذا المسلك الوبيل من الخطر على وظائف الدين ، فامتنع من تولية أبناء الشيخ الشرقاوي مشيخة الزاوية وهي –كانت– من المراتب التربوية الروحية الكبرى ، فجزاه الله عن الدين والنصيحة للمسلمين أفضل ما يجازي به إماماً عادلاً عن رعيته .

وإليك الآن نص الرسالة السلطانية كما وجدناها في أحد المجامع الخطية بمكتبتنا :

الحمد لله وحده

كتاب سليماني جواب لأولاد سيدي العربي بن المعطي في تعزية أبيهم «كذا»

إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجُرْني في مصابي (مصيبتي) واخلفني والمسلمين خيرا منها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ان مات أبوكم الفقير إلى الله مثلي ومثلكم ، فان الله هو الغني الحميد الرزاق ذو القوة المتين ، فاعبدوه حق عبادته ، وكونوا له كوالدكم يكن لكم كما كان له ويخلفه فيكم بخير . «قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي » إلى آخر ما تقرأون وقد ترككم على البيضاء ولم يبق لكم عليه حق ؛ فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، والدين النصيحة وقد نصحت ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

وهذه ولاية ليست كسائر الولايات حتَّى يوليها السلطان ، بل هي ولاية لَدُنية يوليها لمن استحقها الرحمن وأنتم عندي ، كالحلقة المفرغة لا يدري طرفها ، وأعزكم عندي ، من اقتفى نهج أبيه في صلاته وعبادته وجوده وزهده ، والله الله في إخوانكم الصغار «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله» وفي الحديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين» والله يوفقني وإياكم حتَّى نتقي الله ، آمين .

وجبر الناس على الرجوع أمر متعذر ، وان أردتم أن تخرجوا إلى المحل الذي خرج إليه في الوباء رحمه الله فاخرجوا ، ولا عاصم من أمر الله «أينما تكونوا يدرككم الموت» جعلها الله له شهادة وهو ممن هدى الله فبه اقتدوا .

ونسلم على عمتكم الصالحة شقيقة أبيكم ونعزيها في مصيبتها ، عظم الله أجرها ، وهذا الكتاب يبقَى بأيديكم محفوظاً والسلام .

الإسلام والمدنية الحديثة

كان الكتَّاب الذين قيضهم الله في مبدأ هذا القرن للدفاع عن الإسلام والمنافحة عن شريعته ، يجعلون مظاهر المدنية الحديثة وقوانين الاجتماع العصري هي مقياس النهوض والتقدم وغاية النجاح والفلاح ، ثم يعمدون إلى شريعة هذا الدين الحنيف ونظمه السياسية والمدنية يوفقون بينها وبين تلك المظاهر ، ويلحقونها بهاتيك القوانين على دعوى أن بينهما وشيجة نسب ولحمة قربَى تجعل الفارق بينهما معدوما ، والمشابهة قوية جداً . فالإسلام هو روح المدنية ، والمدنية الحديثة بالذات ، وإذا كان هناك ما لا يثبت أمام هذه المدنية فهو النصرانية لا الإسلام ، وهكذا يمضون في المقارنة والتطبيق وغاية قصدهم وجل مرادهم أن يساير الإسلام ركب الحضارة الغربية ولا يتخلف عنها في شيء .

أما من يفكر في أن الاسلام دعوة أسمى وأعلى من أن تنزل إلى هذا الحضيض الأسفل من مسايرة هذه المدنية الهلوك ، وأنه نظام قدسي النزعات فمدنيته هي المدنية التي تكفل سعادة البشر ، فمن حقها أن يحكم بها ، ولا يحكم عليها ، فهذا قليل من كثير .

وأما من يفكر في أن النصرانية هي والإسلام شيء واحد ، لأنها مثله دين سماوي جاءت لتعديل الانحراف الذي وقع في اليهودية التي هي أيضا دين سماوي ، كما جاء الإسلام لتعديل النصرانية المنحرفة بموجب قوله تعالى : «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» فهذا أندر من النادر ، ولعل الاستدلال على أن الأديان الثلاثة أصلها واحد ، ونابعة من عين واحدة هو مما لا يعوز باحثاً في أصول الأديان ويكفي المسلم في ذلك قوله تعالى : «شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسَى وعيسَى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه». وبناء على ذلك فإن كل طعن يوجه إلى الإسلام وشريعته هو أيضاً طعن على النصرانية والشريعة اليهودية التي أثبتتها النصرانية ولم تنقض منها شيئاً ، فقد ثبت عن سيدنا عيسَى عليه السلام أنه قال : «ما جئت

لأنقض الناموس ، الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس» والمقصود بالناموس هنا الشريعة الموسوية.

وبهذا النص من الانجيل احتجَجْتُ على أحد الرهبان الأسبان ، وكنا راكبين في القطار الذاهب إلى مدريد فأنجر بنا الحديث الى قضية الدين ، وكان أن أقنعته بالمنطق والبرهان في كثير من المسائل التي أوردها عليّ وهو يرى أنها مطاعن لا تقبل التأويل ولا الرد ، حتّى أورد مسألة تحريم أكل الخنزير ، فجادلته بكونه مستقذرا لأكله القُمامة ، وبكون ضرره ثابتاً طبياً لما يولده من الديدان الشريطية ، ولا سيما الدودة الوحيدة الخطرة . فقال إن الطب الحديث قد قضَى هلى هذه الأوهام كلها ، وضحك ضحكة منكرة ، وقال : لو أن محمداً ذاق قطعة لحم من فخذ خنزير ، لما حرمكم من لذة أكل لحم هذا الحيوان الذي هو من أطيب اللحوم . فقلت إننا نتذاكر في دائرة الأوامر الدينية من حيث مطابقتها للعقل والمصلحة ، ومسألة تحريم أكل لحم الخنزير ليست خاصة بالإسلام ، فهي من قضايا دينكم أيضاً ، وما يلزم عليها في الإسلام يلزم عليها في النصرانية ، فقال محال ، إن ديننا لا يحرم أكل لحم الخنزير ، فقلت بلَى ، انه يحرمه ، واستدللت عليه بكلام المسيح المتقدم ، وقلت له مادام لحم الخنزير محرماً في شريعة موسَى فهو محرم عليكم بهذا الدليل ، ولم يثبت أن سيدنا عيسَى عليه السلام أكله . فلم يحر جوابا .

ومثل هذا يقال في مسألة الطلاق وتعدد الزوجات ، فإنهما معاً من شريعة التوراة ، وقد جمع الأنبياء الأولون بين عدة زوجات ولم يجيء عيسَى عليه الصلاة والسلام بما ينقض ذلك ، فإذا كان النصارى قد خالفوا دينهم وسنة أنبيائهم الذين يؤمنون بهم من أمثال ابراهيم ويعقوب وداود عليهم السلام ، فإننا يجب أن نفتخر بتمسكنا بدين الله الذي شرعه لعباده ، ونقول للمنتقدين غير المعتقدين ، ما دمنا نتكلم في دائرة الدين وحكمة التشريع الآلهي : إن الاسلام هو ديننا ودينكم ، ما عبتم منه فإنما تعيبونه على أنفسكم ، وما نلتم من نبيه فكأنكم تنالونه من أنبيائكم ، وأما إذا كنتم تنتقدون الدين باطلاق ، لا بقيد كونه دين الإسلام ، فدعونا ننافح عن كلمة الله المقدسة وشريعته المطهرة ، وننازل الزندقة والإلحاد بما يزيفها ويظهر عوارها ، وحسبنا حينئذ أن نكون حماة الإيمان ، ودعاة اليقين ، في حين أنكم تتظاهرون بمهاجمة الاسلام ونبيه عليه السلام ، وتبطنون الكفر والهرطقة وتبذرون بذور الشك والزيغ في النفوس الطاهرة ، والقلوب النقية توسلا لزحزحتها عن اعتقادها السليم ، وابعادها عن دينها الصحيح .

لكن الكثير من أصحابنا الذين كتبوا في موضوع الاسلام والمدنية ، لم يرتكبوا هذا الأسلوب ، ولم يسلكوا هذا الطريق في المنافحة عن الإسلام ، ومنازلة خصومه الذين أكثروا عليه من التقول والبهتان ، وإنما ذهبوا يلتمسون المعاذر والمخارج ، بعد أن ركزوا الدفاع على أصالة المدنية الحديثة ، وسلامتها من كل عيب ، فمثلا إذا عرض الكلام للمرأة في الإسلام وجاءت مسألة تعدد الزوجات ومسألة الطلاق ترى الأقلام تتبارى في رد هذه (الوصمة) وتبرئة ساحة الإسلام من عهدتها ، فمن قائل إن القرآن لم يبح التعدد مطلقاً ، ومن قائل إنه قيده بقيود شديدة تجعله في حكم المحظور ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يفعله على الشرط الذي شرعه به الإسلام ، وهكذا من غير نظر في لوازم هذه الأقوال ومفاهيمها يحرصون الحرص كله على موافقة التشريع الغربي ليكون ذلك تزكية للإسلام .

أما الطلاق فمنهم من يجعل له شروطا وقيوداً ما أنزل الله بها من سلطان ، ومنهم من يدعو إلى إبطال أنواع منه ، ومنهم من يدعي عدم وقوعه في كثير من الأحوال ليوافق هذه المدنية المثالية!..

كذلك إذا عرض الكلام إلى هذه المذاهب الإجتماعية الداعية الى العناية بأفراد الأمة ، ولا سيما الطبقات الفقيرة بتمريضهم وتعليمهم والترفيه عنهم ، فإن كتابنا يذكرون الزكاة ويقرنونها إلى النظم الاشتراكية ، ويضربون للإسلام ــ بارك الله فيهم ــ بسهم في هذه الناحية أيضاً من نواحي المدنية الحديثة .

ولا ننسَى المذاهب السياسية ونظم الحكم والديموقراطية بالخصوص ، فكم أشاد كتابنا أيضا بموافقة الإسلام لها وجريانه على سنتها ، وكم قارنوا بينها وطبقوا من جزئيات ليقولوا إنهما توأمان لا يختلف فيهما اثنان .

إذا كان الرد على أمثال كرومر وسكوت ورينان ونظرائهم اقتضَى من كتاب الجيل السابق أن يسلكوا هذا السبيل في النضح عن الإسلام ودحض أقوال خصومه ، فإن كتاب هذا الجيل يجب أن يعرفوا مهمتهم ، وأن يفرقوا بين الجواهر والأعراض ، والدرر والأصداف ، وأن يقوموا لهذا الدين الحنيف بالدعوة اللازمة ، ويشيدوا بأغراضه السامية ومثله العليا ، ويفهموا العالم أن مدنيته هي مدنية المبادىء الفاضلة والقيم العالية ، والنزوع بالنوع الإنساني إلى الكمال النفسي والخلقي وإهدار الفوارق الجنسية والعنصرية ، وإيثار الخير العام على المصلحة الخاصة ، ولو كانت لشعب كامل إذا لم تشمل غيره من الشعوب ، هي مدنية قائمة

بنفسها لا تستظل بظل هذه المدنيات الزائفة الفاشلة ، هي نظام الحياة السعيدة التي أرادها الخالق للمخلوق .

ولا يحاولوا بعد الآن أن يستروا محاسن الإسلام بهذه التأويلات البعيدة ، وليقولوا بمنتهَى الصراحة إن تعدد الزوجات والطلاق مثلاً هو تشريع إسلامي أصيل لا دخل فيه ولا دغل ، وهو وان لم يوافق (ما كان) عليه التشريع الغربي من استنكار ، فإننا غير حريصين على هذه الموافقة ..وأقول ما كان ، لأن هذا التشريع أصبح يجري في أثر التشريع الإسلامي ، فأباح الطلاق وأباحه بكيفية أوسع مما هو عليه في الاسلام ، وهو يجري أيضاً في طريق تقنين التعدد والاعتراف بشرعيته ، وان كان عمليا لم يخل من اقراره قط .

أما أمرُ الزكاة فهو أعظم وأجل من كل اشتراكية مدعاة ، هو ضمان اجتماعي يُغبِّر في وجه كل نظام تدعم به هذه المدنية الحديثة مجتمعها ، وقارن أي مجتمع حديث بأحوال المجتمع الإسلامي أيام الخلفاء الذين كانوا يعنون بجباية الزكاة وصرفها في وجوهها ، تدرك الفرق بين المجتمع الإسلامي السعيد والمجتمع الحديث الذي يدْمَغُه البؤس والشقاء . وكذلك نظام الحكم في الإسلام يجب على كتابنا ألا يهينوه بمحاولة تنظيره بهذه الديمقراطية الكاذبة ، هذه البطن المنهومة التي لا يكسر جوعتها حلال ولا حرام ، هذه المرأة الفاجرة التي تبيع عرضها بالبخس ، وتدعي أنها أعف الناس ، هذه المحكمة التي لا ضمير لها الا الرشوة والتزوير ، ولا قانون الا الميز والمحاباة .

هذه ..حرام أن يقاس بها النظام الذي جعل صهيباً وبلالاً وسلمان في مستوى واحد مع أبي بكر وعمر وعلي ، واقتص من ولد فاتح مصر وحاكمها العام عمرو بن العاص لقبطي من عامة الشعب ، صادراً في ذلك عن شعاره الخالد في التعايش السلمي وتقدير قيمة الإنسان وهو قوله تعالى : «يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » .

إن الإسلام كما هو دين فوق الأديان فمدنيته فوق المدنيات ، ولكن كتاب هذه المدنية مازال لم يكتب منه ولا فصل واحد .

---

(1) تسابق ولد لعمر بن العاص ، وهو والٍ على مصر مع شاب مصري ، فسبق الشاب ، فضربه ولد عمرو بسوط وقال له : خذها وأنا ابن الأكرمين . فرفع القبطي أمره إلى الخليفة عمر بن الخطاب فأشخص ولد عمرو إلى المدينة واقتصَّ منه وقال كلمته الذهبية : «متَى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.»

مبادىء النجاح في الإسلام

إذا ذكرنا النجاح ، فقد ذكرنا الأمل المنشود ، والحلم الجميل المفقود لكل طالب وكل عامل ، وإذا حاولنا الكلام على النجاح ومبادئه ، فقد أثرنا موضوعاً يهم الراغب بقدر ما ينبه الغافل ، فالنجاح هو غاية كل انسان يكدح في هذه الحياة ، لا يمل ولا يفتر عن طلبه مهما كلفه من التعب والتضحيات ، التلميذ في مدرسته يجد ويجتهد لأجل النجاح ، والصانع في مصنعه والفلاح في حقله والتاجر في متجره ، كلهم يعملون للنجاح ، والعالم والفنان والسياسي ما منهم من أحد الا وهو يود أن يكلل عمله بالنجاح ، والجمعيات والأحزاب والحكومات تضع البرامج وتسعى لتنفيذها لتظفر بالنجاح ، هذا النجاح الذي هو مطلب الكل ، ومنتهَى رغبة الجميع ، له مبادىء وأصول ، إذا لم يستند إليها ولم يقم عليها لم يعدُ أن يكون أمنية من الأماني ، وخيالاً محبوبا يعيش فيه صاحبه كما يعيش المدمن في عالم المخدرات بالوهم والتسويل .

إنما لكل إنسان مبادىء وأصول يظنها كافية لانجاح عمله ، فمن نجح احتفظ بمبادىء نجاحه ، وبنَى عمله عليها في المستقبل أخذا بتجربة نفسه ، والتجربة أصدق دليل ؛ ومن أخفق رجع إلى ما عنده من المبادىء فأدخل عليها التعديل اللازم ، واستأنف عمله بمقتضَى ما وصل إليه العلم الجديد . فمبادىء النجاح تختلف باختلاف الناس علماً وفهما ، وتتنوع بتنوعهم مزاجاً وخلقاً ، وهي من الكثرة بحيث تعادل عدد الناجحين في هذه الدنيا . فبالاطلاع على حياة الأعلام التاريخية ، ودرس تراجم المشاهير من الرجال في كل عصر وفي كل جيل ، يقف الإنسان على وسائل عديدة وأسباب كثيرة لنجاح هؤلاء الأفراد الممتازين من البشر ، الذين استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم على التاريخ من دون الملايين المعاصرين لهم ، فيسجلوا تواريخهم في الصحف الخالدة ، ويبقوا ذكرهم على ممر السنين والأعوام ثم هؤلاء منهم من تحدث عن سبب نجاحه أو تحدث الناس عنه بذلك ، ومنهم من كان يكتمه ويطويه في دخيلة نفسه .

ومن الناجحين من لم يتحدث لنا عن نفسه بشيء ، ولا تحدث الناس عنه كذلك ، وخصوصا أهل الطبقة المتوسطة وذوي الأعمال المادية ، وهؤلاء كثير ، بل هم أكثر من غيرهم ، ولا شك أن لهم وسائل ومعدات للنجاح تتفق مع أعمالهم وإدراكهم ، وقد دفنت معهم فحرم منها من هو في درجتهم وعلى مثل وضعيتهم ، إذ كان يمكنه أن يستفيد منها ويتدرب بها ، ومنهم من كان نجاحهم لحادث بسيط وقع لهم في حياتهم ، ومن كان نجاحهم صدفة من غير تدبير ، ومن كان نجاحهم نتيجة إخفاق غيرهم ، إلى ما عدا ذلك من الأسباب . فأنت ترَى أن مبادئ النجاح كثيرة ، وهي على كثرتها منها الطبيعي وغيره ، ومنها الشخصي والعمومي ، بحيث لا يتأتَّى لنا الحديث عنها لعدم إمكان إحصائها ، ولعدم فائدة حصره . ولكن نحن ننظر فيما كان منها عمومياً لا يتقيد بحال ، لما نرجوه من المصلحة العامة في ذلك ، ولما نودُّ أن نطبقه عليها من تعاليم الإسلام الخالدة ، والإسلام كما هو معلوم ، لما كان آخر الأديان لم يحفل إلا بأصول المسائل وأمهات القواعد التي يكون عليها المدار ، وتبقَى ببقاء الزمان لا تتبدل ولا تتغير ، لكونها من السنن الكونية ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً . أما الجزئيات والتفاصيل التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، والحال والاعتبار ، فقد وكلها إلى أنظار الأمة تقدرها بضرورتها ، وتقضي فيها على حسب ظروفها ، نفيا للحرج عن الناس ، وجريا مع ناموس التطور الذي لا محيد عنه . وهذا سر من أسراره العظيمة التي أمكنه بها أن يساير الحضارات المختلفة في شتَّى اتجاهاتها ، ويؤوي تحت لوائه أجناساً وعناصر متباعدة من بني الإنسان ، فيؤلف بينهم ويكون منهم مجموعة متشابهة في الميول والأذواق ، والنفسيات والأخلاق ، حتَّى في العصر الحاضر الذي امتاز بزيغ أكثر الطوائف الدينية عن دينهم ، ذهابا مع تيار العلم المادي الذي هو روح المدنية الحديثة ، استطاع الاسلام أن يثبت وجوده ، ويوفق بين نظريات العلم وأصوله الاعتقادية والتشريعية ، فلم يصد اتباعه عن الأخذ بأسباب المدنية الحديثة ، ولم يجعل بينهم وبينها هذه الهوة السحيقة التي توجد بينها وبين أتباع الأديان الأخرى الذين يريدون أن يتمسكوا بدينهم ولا يضحوا به في سبيل مادية العلم .

هذه المبادىء التي هي في نظرنا ثابتة لا تحول ، ومستمرة لا تزول ، تنحصر في عدد الأربعة ولا تزيد عنها بحال وهي : العلم والعمل والاخلاص والصبر ، فيا لها من دعائم قوية ، وأركان متينة ، بها توقّلت الأفراد فالأمم معارج الرقي ، وبلغت إلى قمة المجد وسماء العز ، ونالت غاية النجاح والفلاح ، وان سائر الوسائل قد تتخلف

وجميع الأسباب قد تنقطع ما عدا هذه ، فانها دائمة باقية لا غنى عنها لطالب دين أو دنيا ، لفرد أو جماعة ، لأمة كأمتنا بالخصوص قعد بها الدهر عن مجاراة الأحياء ، ومواتاة سنة الكون في النشوء والارتقاء ، فأصبحت خالفة تتطلع إلى مصاف الأمم المتقدمة وهي عنها بمعزل من وراء وراء .

العلـــم

المبدأ الأول من مبادىء النجاح العمومية ، العلم وما قولنا في العلم الا انه الوصف المحقق لمعنَى الحياة فالحياة بدونه معنًى باطل ، وقديما نظر إليه ابن تاخميست من شعراء المغرب هذه النظرة فقال بيتيه المشهورين :

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصـــالــه تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو يمشي على الثرى يـعـد من الأحياء وهو عديم

وإذا كان العلم كذلك ، فلن يتأتى لفاقده نجاح في أمر ما ، إذ يكون بمثابة فاقد الحياة ، وهذا لا يوصف بنجاح ولا ضده ، نعم قد يواتي الحظ بعض الجهال في بعض الأحيان فيرتفع إلى مرتبة لا يستحقها ، أو ينجح في أمر لا يكون من ذوي الخبرة به ، وحينئذ تقوم قيامة العجزة والقاصرين فيضجون قائلين : أنظروا إلى الامور كيف توضع في غير موضعها ، والكفاءات كيف تحرم من حقها ، وربما بالغ بعضهم ففاه بما فيه تجريح للعدالة الإلّهية كابن الراوندي حيث يقول :

كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي تركَ الأفكار حائرة وصيَّر العالم النحرير زنديقا

إنما لا ينبغي أن يعد كل من لم تتوفر فيه الشروط — في نظرنا — قاصراً في الواقع عن الأمر الذي نجح فيه . فربما كان هناك سبب قوي أو أسباب لنجاحه لم نطلع عليها لكونه يحتفظ بها في سره ، كما قدمنا ، من أن كثيراً من الناجحين يبقون سر نجاحهم مكتوماً لا يطلع عليه أحد . وربما كان النجاح نفسه مزيفاً ليس كما يظهر لهؤلاء المتذمرين الساخطين . ثم إذا أسقطنا جميع الاعتبارات يبقَى أن الناجح على هذه الحالة إنما هو واحد أو اثنان في المائة شذّا عن القاعدة — ولكل قاعدة شذوذ — ومع ذلك فنحن مطالبون بمجاراة سنن الكون العامة التي منها أن العلم أساس النجاح ، وغير مأمورين بانتظار المصادفات وخوارق العادات ، على ان هذا الشذوذ خاص بالأفراد ، وأما الجماعات فلن تجد فيها من لم يركب سفينة العلم بغية

نجاح مسعاه ، وإذا كان لا يهمنا هنا الا أمر الأمة التي هي عبارة عن جماعة كبيرة من الناس فالعلم لها ضروري لا تحيى الا به ، كما لا تحيى الأرض الميتة الا بالمطر. وهل يستطيع أحد أن يدلنا على أمة ناجحة في سياستها واقتصادها وجميع شؤونها العامة ، من دون أن تكون لها قدم راسخة في العلم والعرفان ، بل هل يستطيع أحد أن ينكر أن هذه الأمم التي وقعت تحت سيطرة الغير إنما سبب محنتها الأقوى الغباوة والجهل ؟

هل ساس شعباً وقاد الجيش من جهلا سر في البلاد وسائل ساكنيها معا
أن التقدم علم قارن العملا[2] سر في البلاد وقابل من ترى لترى

ثم المراد بالعلم الذي تبنى عليه حياة الأمم ، العلم الصحيح المفيد في ميادين العمل ومجالات الابتكار ، لا هذه النفايات والقشور التي يتشدق بها المغرورون ، ويظنون أنهم ملكوا بها ناصية الأمور ، فإذا دعوا لملمة أو انتدبوا لمهمة ، لم يغنوا عن الأمة شيئاً ، وربما كانوا سببا في مضاعفة البلاء عليها بما يواقعون من الأغلاط ويثيرون من المشاكل ، في حين يرون أنهم من الذين يحسنون صنعاً وهم الأخسرون عملا .

العلم الذي لم يفد الأمة حتَّى في صنع الورق الذي تكتب عليه آيات كتابها المقدس ، والإبر التي تخيط بها ملابسها وأعواد الكبريت التي تضرم بها النار لا يقال له علم . والأمة التي تعجز عن انتاج هذه الأشياء البسيطة وما هو أبسط منها ، فقد تستورد أعواد الكبريت بدون علب فتجعلها حزماً لأنها لا تقدر على صنع علب لها ، هذه الأمة لم ترح للعلم رائحة بعد ، ولا تصورت له معنًى ، إلا أن يكون معنًى مقلوبا لا فائدة في تصوره ؛ ونتيجة ذلك ما نرى من فقرها في الصنائع والفنون والعلوم الضرورية للحياة كالطب والهندسة وما إليها .

ومما يؤسف له أن يكون دين هذه الأمة أول الأديان حضا على العلم ، وهي لا تأخذ به ، فالإسلام هو الذي رفع راية العلم ، وأكبر شأن العلماء بما لم يماثله فيه قانون شرعي ولا وضعي ، وجعل أول الواجبات على المكلف العلم . وفي كتابه المقدس من الآيات البينات الدالة على شرف العلماء والباعثة على طلب العلم ما لا يحصي كثرة ، كقوله تعالى : «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وقوله :

(2) هذان البيتان للكاتب من قصيدة كان ألقاها في المدرسة الأهلية بتطوان في أيامها الأولى .

«ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا» وقوله : «وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون» . وقال في خصوص طلبه وهو دال على ارسال البعثات العلمية : «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون» . وقال في السياحة العلمية والاستفادة من آثار الأمم الماضية : «افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» وقال لنبيه : «وقل ربي زدني علما» . وفي حديث النبي ﷺ كثير من الأقوال في هذا الصدد مثل : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» يعني ومسلمة ، لأن النساء شقائق الرجال في الأحكام ، ومثل : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء» وفيه دليل على أن ما يدفع الله بالعلماء عن الأمة أكثر مما يدفع برجال الحرب ، وهو مشاهد في أمتنا بالخصوص . ومثل : «إذا أتى عليّ يوم لا ازداد فيه علما يقربني الى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم» ومثل : «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» ومثل : «اطلبوا العلم ولو بالصين» وفيه الحث على الرحلة في سبيل العلم ، ويؤيده الحديث الصحيح «من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع» إلى غير ذلك مما هو معلوم ، فياليت شعري كيف صار أن الأمة التي هذه آيات كتابها ، وأحاديث نبيها تهيب بها إلى العلم ، وتجعله عليها فرضا كفرض الصلاة تتأخر عن طلبه ، وتتخلف عن تحصيله ، وهي ترى ما أحاط بها من الأخطار ، وتعلم أن سببه الجهل ، فلو لم تنبعث له من تلقاء نفسها لما فيه من نجاح امرها لانبعثت له بداعية الدين ورغبة المؤمنين ، فاللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علما .

العمـــل

ثاني مبادىء النجاح العمومية العمل ، وهو ثمرة العلم ، فإذا حصل العلم لشخص وجب عليه أن يعمل بحسب علمه ليحصل على النجاح ، اما إذا انزوَى العالم في بيته وانقبض عن الناس ، ولم يفكر في النفع ، ولا حام حول ذلك الحمى فإنه والجاهل سواء ، إن لم يكن أسوأ حالا منه ، لما يعتريه من الكبر والعجرفة ، وربما آذى الناس فكان أبصر بوجوه الإذاية من الجاهل ، وربما سخر الناس لمنفعته الخصوصية وأوهمهم أن ذلك خدمة للعلم ، وتعظيم لشأنه وماهو إلا استغلال لهم وضحك على ذقونهم ، وبيننا من هذا الصنف من الناس كثير ، وكثير ممن لا حاجة

بنا إلى تسميتهم ولذلك فإن المغرب لم يرفع بهم رأسا ، ولا حصل على حظ من إصلاح ديني ولا دنيوي .

هذا القطر الجزائري الشقيق ، قام فيه منذ نحو العقدين من السنين عالم ديني كبير — والكلام لابد أن يكون في علماء الدين لأنهم العلماء الذين عندنا — فكرس حياته لنفع أمته ، ولم يدخر جهداً ولا وقتاً ولا مالاً إلا صرفه في سبيل وطنه ، فجعل من مسجد سيدي الأخضر بقسنطينة كلية إسلامية يرد إليها الطلاب من كل حدب وصوب ، وانشأ مجلة الشهاب التي أحيت لغة العرب في الجزائر ، وأسس جمعية العلماء التي ربطت بين كل من ينتمي إلى العلم في الجزائر برباط العمل والإخلاص فقامت تحارب الجهل والبدع الدينية بفتح المدارس في كل مدينة وقرية ، وإلقاء المحاضرات الدينية المنوعة في الأندية والأماكن العمومية ، لإغلاق المساجد في وجوه العلماء وتحريم التدريس بها على غير من بيده رخصة رسمية ، كما يقضي به الحكم الفرنسي الجائر في بلاد الجزائر ، وجال جولات موفقة في السياسة ، فكون لأول مرة رايا عاماً حول القضية الجزائرية من النواب والشباب ورجال الأعمال الحرة وغيرهم ، وسافر إلى فرنسا في الوفد البرلماني طالباً تمثيل امته في برلمان فرنسا وغير ذلك ، فمن من علمائنا نستطيع أن نقارنه بالشيخ عبد الحميد بن باديس على ما هم عليه من سعة العلم وانفساح الباع . حقاً إن عندنا من علماء الدين من هم في مرتبة أشياخ ابن باديس رحمه الله ، ولكن العبرة بالعلم والعمل معاً لا بالعلم وحده ، فعمل ابن باديس هو الذي عرفنا بأن هناك في قسنطينة مسجداً يقال له جامع سيدي الأخضر . وعمل ابن باديس هو الذي عرفنا بعشرات الأسماء من علماء الجزائر وكتابها وشعرائها كانوا في غيابة الجهل والنسيان ، وعمل ابن باديس هو الذي عرفنا بكثير من النواب وقفوا يدافعون عن حقوق أمتهم بكل شجاعة وإخلاص ، ويستقيلون جميعا في يوم واحد احتجاجاً على تصرفات الادارة الظالمة ، فأين أسماء العلماء الأخرى التي توازي اسم ابن باديس في المحمدة والذكر الحسن ، أين أسماء شيوخه الذين تلقى عنهم العلم في جامع الزيتونة بتونس ، وأكثرهم لا زال حيا يرزق؟ الجميع هواء في هواء ، ولقد قيل للمهلب بم أدركت ما أدركت؟ قال بالعلم ، قيل له : فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت ، ولم يدرك ما أدركت ، قال : ذلك علم حُمل ، وهذا علم استُعمل .

فالمدار اذن على العمل ، ولولاه لما رأينا من آثار العلم والمعرفة شيئاً ، بل لما

كانت هذه المدنية العجيبة التي يعيش العالم في بحبوحة نعيمها ، ويتمتع باجتناء ثمراتها ، فمن خفف متاعب الانسان ، وحمل عنه اوزاره وضمد جراحه وآسى علله غير العلماء العاملين؟ من الذي فتح بصره على النور فعلمه مالم يكن يعلم ، وقرب بينه وبين الأبعاد السحيقة فرأى ما لم يكن يراه ، وسمع ما لم يكن يسمعه غير العلماء العاملين؟ أفرأيت لو قعد رجال الفكر وأساطين العلم عن البحث والعمل ، هل كنا نركب القطر والسيارات مستريحين من تعب الحمير والجمال ؟ هل كنا نركب السفن البخارية ونجوب البحار مستغنين عن الريح غير خائفين من مداعبتها الثقيلة؟ بل هل كنا نتحدث إلى أحبابنا وأصحابنا بالهاتف والبرق وبيننا وبينهم المسافات غير المعدودة فتسمع أصواتهم ، ونتلقّى أجوبتهم للتو والساعة؟ بل هل كنا نسمع من المذياع أخبار الدنيا فنعرف مجرى السياسة العالمية ، ونتتبع تطوراتها اليومية من غير أن تستعمر الجرائد والنشرات الرسمية أفكارنا ، وتلعب الدعايات المأجورة بعقولنا؟.

وننظر في حياتنا الاجتماعية ، فنرى أن للعلماء العاملين فيها من الآثار المحسوسة ما لا يمكن لأحد نكرانه ، بل نجد أننا تكيفنا بهذه الآثار فصارت جزءا متمما لحياتنا لا يمكننا الاستغناء عنه ، فبفضل جهودهم العلمية صار لدينا من الأدوات ووسائل العيش ومظاهر الرفه وأسباب الراحة ما ظل أجدادنا محرومين منه القرون الطويلة . فهذا الورق الذي نكتب عليه هل يستهين أحد بمزيته الكبرى من كثرته المطلقة ، بحيث أصبح عندنا شيئا لا قيمة له؟ وهذه المطبعة التي طوقت الانسانية بمنتها العظمى إذ أخرجتها من ظلام الجهل إلى نور العلم ، هل يمكننا اليوم العيش بدونها؟ وهذه آلات الجراحة ومستحدثات الطب التي خففت من أوجاع البشرية ما لا يحتمل ، ومثلها منتجات الصيدلية التي تعرض علينا في كل حين أدوية ناجعة في زجاجات نظيفة ، هل يمكننا أن نستغني عنها ونكتفي بالمحجم والمكواة؟ بل هذا النور الكهربائي في بيوتنا ، وهذه الشوارع المرصوفة في مدينتنا والحدائق الجميلة والساحات العمومية تستقبلنا حيثما توجهنا ، كل ذلك أصبح عندنا من الضروريات اللازمة ، بدليل أننا إذا ذهبنا إلى مدينة قديمة ، أو خرجنا إلى البادية ، لم نطق المكث بها إلا أياما معدودة ، وجميع ذلك من نتيجة الاجتهاد والعمل وسعي العلماء وتدبير المفكرين .

ولما كان العمل بهذه المثابة فإن الدين الاسلامي الحنيف وضعه في المقام الأول من الاعتبار ، وجعله مناط السعادة ، وجازى عليه الجزاء الأوفى ، ولم يهمل منه ما

قل ولا ما جل ، حتَّى مثقال الذرة أثبته ولم ينسه ، وهذه نصوص القرآنِ شاهدة بذلك ، قال تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» وقال «من عمل صالحا فلنفسه» ، وفي هذه الآية بيان أن نتيجة العمل راجعة إلينا . وهي مثل الآية الأخرى «ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون» .

وقال تعالى، واعداً المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالتمكين لهم في الأرض والاستخلاف : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليُمكننّ لهم دينهم الذي ارتضَى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم امنا» وقال وهي من باب ما قبلها : «الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر».

وقال في جزاء العمل مهما كان صغيراً : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره».

وجاء عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في قيمة العمل ، وانه المقصود من العلم والحث على السعي والكسب قصد الاستعفاف والغنى مثل قوله : «من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم» وقوله : «طوبَى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله» وقوله: «من تعلم علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً» وقوله «كل علم وبال على صاحبه الا من عمل به»، وكان يقول فيما يتعوذ منه : «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» إلى آخره .

وقال في خصوص السعي والكسْب : «لأن يأخذ أحدكم حبلاً ، فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، اعطوه أو منعوه» وقال : «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه» وقال : «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وقال : «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه ، بورك له فيه» وقال : «سبعة يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته ، من علم علماً ، أو كرى[3] نهرا ، أو حفر بئراً ، أو غرس نخلاً ، أو بنَى مسجداً ، أو ورَّث مصحفاً ، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته » وفي هذا الحديث من بركات العمل في العمارة والتعليم وتكثير النسل ما لا يخفى . وقد مشى سلفنا الصالح على هذا الأثر ، فما قصروا في رفع مستوى الأمة مادياً وأدبياً ، والعمل لما فيه خيرها

---

(3) أي حفر.

ورفاهيتها ، بل لنفع البشرية عموماً والنهوض بها من كبوتها ، حتّى نهضت وتقدمت وصارت إلى ما هي عليه الآن من السعادة والهناء . فعمر قوض مملكتي الفرس والروم ، ورفع راية الخلافة الاسلامية في مكان رايتيهما ، والرشيد جعل من بغداد عاصمة الدنيا علماً وحضارة ورفاهية ؛ وعبد الرحمن الداخل وضع أساس الفردوس المفقود ؛ وصلاح الدين حفظ كرامة الاسلام في الوقت الذي أظهر فيه سماحته ؛ والكندي ، والفارابي ، والرازي ، والبيروني ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن باجة ، وابن خلدون ، أثبتوا بأعمالهم وآثارهم تَفتُّح الذهنية الاسلامية لسائر العلوم ، ومساهمتها في توسيع المعرفة وتخليصها وتنظيمها بما لم يسبق له مثيل ، فياليتنا ننسج على منوالهم ، ونتشبه بهم في أفعالهم إن كلاً أو بعضاً «فإن لم يصبها وابل فطلّ». ومن الله التوفيق .

الإخــلاص

ياله من مبدأ سامٍ ينم عن النبل والشهامة ، ويكاد كلما ذكر تهفو إليه القلوب ، وتحنو عليه الجنوب ، يدعيه كل واحد ، وقل ان تتمثل حقيقته في أحد ، فهو تاج لا يوضع إلا فوق رأس أكثر العاملين تضحية بالنفس والنفيس وبالشخصيات الملعونة ، والتوافه المرذولة ، فإذا طهرت نفس العامل من رعونتها ، وصفت سريرته من أكدارها ، وكان مع ذلك مغامرا مخاطراً في سبيل المصلحة العامة ، فقد استحق أن يتوج بتاج الاخلاص ، ويعلوه بهاؤه وجماله ويكسوه نوره وجلاله ، ولله در العقاد إذ يقول :

وكذا الاخلاص حر مطلق كصفات الله ما فيها اضطرار

والنجاح أيضاً مشروط بهذا المبدأ الثالث ، ضرورة أن من كان يعمل بلا قلب لم يبلغ من عمله ما يريد ، فالعامل للتلهي عابث ، والعامل بقصد الشهرة مراءٍ ، يعامله الناس بنقيض قصده ، فتكون نهايته الفضيحة ؛ والعامل لأجل أن يعلو زيد ويسفل عمرو مغرض لا بد أن يفشل هو وزيده أخيرا ، وإنما ينجح من أخلص لعمله ، وكان مراده النفع مطلقاً من غير أن يخص بفلان أو علان ؛ الا أن يكون ذلك من طبيعة العمل بحيث لا يحتمل غيره ، وحينئذ فليختص به مواطن النفع . وهكذا مهما داخلت العمل شائبة غرض الا وقضي عليه بالفشل الذريع . ومصداق ذلك من التاريخ والمشاهدات الوقتية لا يعد ولا يحصَى ، فكم مهدي قضي عليه

في مهده ، وكم من زعيم قام ليصلح نظام الدنيا بزعمه فسقط من حينه ، وكم وكم غيرهما ممن خاب سعيه ، وبطل تدبيره ، لفقد سر الاخلاص في عمله ، وانطوائه من أول وهلة على غرض فاسد لا يستقيم معه أمر ، «ان الله لا يصلح عمل المفسدين». نعم قد تقوم الحركة من أول الأمر على الاخلاص والصدق والنية الحسنة ، ثم تعرض لها الأغراض السيئة والمقاصد الفاسدة ، وهذه أيضا إذا سيطرت عليها تلك الأغراض فإن نصيبها لا محالة الفشل والانهيار ، ومصيرها إلى العدم والاضمحلال . ولا نقول بقول الفقهاء ان عروض الرياء أثناء العمل لا يضر ، فإن هذا إذا كان صحيحاً إنما يكون فيما هو حق لله من أعمال العبادات وأمور الطاعات ؛ اما الأعمال العمومية والحركات المتعلقة بحقوق العباد فلا ينبغي أن تدنس بالأغراض والشهوات ، لا أولاً ولا وسطاً ولا أخيراً ، وإلا اصطدمت بصخور الأهواء والمطامع ، والحزازات الشخصية ، والعداوات القديمة فعصفت بمصالح الناس ، وعبثت بحقوقهم ، وتطاير شررها إلى مكارم الأخلاق وآداب المعاملة ، فأفسد ما تعب المربون في اصلاحه منذ الصبا .

ومن وجوه الاخلاص العملية افراد الوجهة أو ما نعبر عنه بالاختصاص ، وهو شرط أساسي للنجاح في العمل وخصوصا في العصر الحاضر الذي صار النجاح فيه مقصوراً على المبرزين في الأمور ، والمتفوقين في الأعمال بحيث لم يبق مجال للمترددين ، ولا لمتشبعي الأنظار . فإما أن يقبلوا بكليتهم على عمل واحد حتَّى يتقنوه ويظهروا عليه ؛ وإما أن ينسحبوا من الميدان يجرون أذيال الخيبة والحرمان ، وهذا شيء محسوس . فما تقدمت العلوم وتميزت فروعها وكثرت الاستكشافات ، وعظمت الاختراعات الا بالاختصاص ، وما ظهرت العبقريات الفنية والبطولات العلمية وتعددت وتنوعت إلا بالاختصاص . وقديماً أيضا كان الاختصاص سبب التقدم في الأشياء والتمرس بالأمور ، ولذلك كان الأقدمون يقولون : إذا أردت أن تكون عالماً فعليك بفن واحد ، وإذا أردت أن تكون أديباً فعليك بكل الفنون .

وقد نظر الاسلام إلى الاخلاص نظراً خصوصياً بحيث اعتبره روح الأعمال الذي به الاعتداد ، وحقيقة الانسان الكاملة التي عليها الاعتماد ، بل أقام له موازين دقيقة تسجل منه حتَّى الخطرات ، وجازى عليها جزاء الحسنات . فمن آيات الذكر الحكيم فيه قول الله عز وجل : «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» وقوله : «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين» وقوله :

«فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص» وقوله : «وما آتيتم من ربي لتربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» وقوله : «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» . فألغى جميع النسك ولم يعتبر منه الا النية الخالصة .

وفي الحديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وفيه «إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» وفيه «ان الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك في كتابه ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة» الخ . وفيه من هذا الوادي «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ، رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله وينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا وهو يقول لو كان لي مثل هذا عملت فيه بمثل الذي يعمل ، قال رسول الله ﷺ فهما في الأجر سواء ؛ ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط في ماله ينفقه في غير حقه ، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما وهو يقول لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل ، قال رسول الله ﷺ فهما في الوزر سواء» . فجازى العبد على نيته ، وهذه من اللطائف في دين الاسلام .

ومن ثم يقال نية المرء خير من عمله ، وقد جوز الشرع لهذا السبب الحسد بمعنى الغبطة فجاء في الحديث «لا حسد الا في اثنين ، رجل آتاه الله علماً فهو يعلمه الناس ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق» يعني فليحسد الانسان في ذلك فإنه مأجور ، فهذا مقام الاخلاص في الاسلام ، وقد اختصرنا الكلام فيه اختصاراً ، والا فهو أطول من هذا وأوسع بكثير ، ومما أمر به ﷺ من الدعاء في هذا الباب ونحن ندعو به «اللهم انا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه» .

- الصبر

وهذا هو المبدأ الرابع والختام الحاكم على ما تقدم من المبادىء المنزل منها منزلة الطابع من المنشور ، فكما لا إعمال للمنشور قبل طبعه ، فكذلك لا تأثير لهذه المبادىء بدون صبر . العالم لا يجني ثمرة علمه إلا بالصبر ، والعامل لا يتغلب على

عمله إلا بالصبر ، والمخلص إنما يظهر اخلاصه للعموم بالصبر ؛ فلو ان العالم مل من الطلب وسئم من التردد على مجالس العلم ، لم ينل من مراده شيئاً ، وبقي نصف متعلم ، وما أشد ضرر انصاف المتعلمين هؤلاء على الأمة ، لأنهم يظنون أنفسهم قد علموا وفهموا واستغنوا عن التوجيه والارشاد فيرتكبون أخطاء فظيعة ، واغلاطاً شنيعة لا يمكن لأحد أن يردَّهم عنها ولا أن يعرفهم بها . ثم إذا رأوا الغير قد بذَّهم وسبقهم إلى غايات الكمال ألبوا عليه الناس وقاموا في وجهه يسقطونه حسداً وبغياً من عند أنفسهم . ولا تسل عما يسببه ذلك من الفتن والأهوال ، بلى وأعظم الضرر أنهم يسجلون على الأمة العجز والقصور ، إذ لم يستطيعوا أن يصبروا قليلاً حتَّى يصلوا إلى الغاية ، وينتجوا المطلوب ، وانما تعجلوا الشيء قبل أوانه فعوقبوا بحرمانه ، وهذا من أكبر العيب في الناس كما قال المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

وقل مثل ذلك في العامل كيفما كان ، فإنه لا يملك زمام الأمر من عمله الا بالصبر ، والصبر الطويل ، ولا سيما إذا كان العمل عظيما ، فيلزم له صبر عظيم ؛ بل إنا نرى أناساً يتولون بعض الأعمال وليس لهم تمرس بها ولا دربة عليها ، ولكنهم بالصبر الجميل ينجحون فيها ويظهرون عليها حتَّى يبدي العجب من كان يعرفهم قبل . ولو عرض عليه أمرهم لراهن على فشلهم وعدم امكان نجاحهم ، ومن هنا قول العامة : ان الدوام يثقب الرخام ، والدوام كالاستمرار والثبات والمثابرة وصدق الطلب وغيرها تندرج كلها تحت الصبر ، وتدخل جميعها في معناه .

وأما الاخلاص فان توقفه أيضاً على الصبر من الوجهة العملية لا شك فيه ، اذ ليس بكاف للنجاح أن يكون الانسان مخلصا فقط وهو ملول ضيق الصدر كأنما يصعد في السماء فلو نفعه إخلاصه من الناحية الدينية وجوزي عليه في العقبى لما نفعه من الناحية العملية في شيء ، ولكان عليه إذا أراد نجاح مشاريع أعماله أن يصبر صبر أيوب حتَّى يوافي المرغوب . ومعلوم أننا إنما نتناول هذه المبادىء من ناحية الإيجاب وجهة العمل ، فلذلك لابد أن نراعي ارتباط بعضها ببعض ، وطريقة انتاجها كي تؤدي إلى المقصود الذي هو تذليل العقبات والنجاح في سائر المهمات . هذا ولبعض الأخلاقيين نظر خاص في الصبر ، فهم يردون الفضائل كلها إليه ، ويعتبرونه أصلا لجميع الأخلاق ؛ وما ذلك إلا لعظم نفعه في تحصيلها أولاً ، وجميل أثره في الاحتفاظ بها بعد حصولها أخيرا ؛ فلولا صبر الانسان في

مجاهدة الهوى والنفس لما صفا له خلق ما، ولا اتصف بفضيلة من الفضائل، لولا صبر الكريم على البذل ومقاومة هواجس النفس في التخوف من الفقر، لما سخا بدرهم واحد في سبيل الله، ولما أمكنه التفصي من رذيلة البخل التي هي من شر الرذائل. ولولا صبر العفيف على مخالفة الشيطان والهوَى وضبط نفسه عن مواقع الردى لزل وانهمك في الشهوات، وكان أسوة غيره من المستهترين، ولولا صبر الشجاع عند اللقاء واشتعال نار الحرب لجبن وارتد على عقبه مهزوماً، ولم ينتصف مظلوم من ظالم، ولا انتصر حق على باطل أبداً. فالصبر إذن ملاك الفضائل، والزمام الذي به تضبط، والقطب الذي عليه المدار في الصغيرة والكبيرة.

قالوا وقد ذكر الصبر في القرآن أكثر من تسعين مرة، وما ذلك إلا لمزيد فضله وعظيم أثره في التربية والتعليم، فمن قوله تعالى فيه: «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقّيها إلا الذين صبروا وما يُلقاها الا ذو حظ عظيم» وهو منهاج قرآني للدعوة والإرشاد يكفي أن يكون الله واضعه من فوق سبع سماوات، ومنه: «انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب» وهذا جزاء لا نظير له، إذ كل الأشياء تدخل تحت العد والحساب، الا جزاء الصبر فإنه لا حد له ولا نهاية، ومنه: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك الا بالله، ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون». ونزلت هذه الآية في غزوة أحد لما قتل المشركون حمزة عمّ النبي ﷺ ومثلوا به، فقال النبي ﷺ، وقد رآه على تلك الحالة: والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل الله عليه هذه الآية فكف وكفر عن يمينه، وقد أظفره الله بهم في النهاية ونصره عليهم وأدال له منهم، وهكذا يكون للصابرين العاقبة «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» وفي هذه الآية سر عظيم فان الصبر والمغفرة على ما يظهر للناظر ابتداء من الأمور السلبية، لأنهما يقتضيان نزول الانسان عن حقه وهما في الواقع من الأمور الإيجابية، بل من عزمها بسبب ما يؤولان إليه وما يعقبانه من الفوز والنصر.

وجاء مدح الصبر في السنّة كثيراً، فمن ذلك حديث «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» وحديث «ان النصر مع الصبر» وحديث «ما أعطي أحد عطاءً خيراً أوسع من الصبر» وحديث «الصبر نصف الايمان» إلى غير ذلك. ومكان الصبر

في الإسلام لا يخفى على أحد ، فلا نطيل فيه ، ونحن نحمد الله عز وجل على ما بقي لهذه الخلق من اثارة في نفوس المسلمين ، فإن المحن والأرزاء التي نزلت بهم عظيمة جداً ، وما تغلبوا عليها إلا بالصبر . لكن لا ينبغي أن تبقى قوة صبرهم موجهة إلى الدفاع فقط ، وإنما يجب أن تتوجه إلى الهجوم أيضا ، ليكونوا مصداق قوله تعالى : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا».

هذه هي المبادئ الأربعة التي نرى أن النجاح على العموم مرهون بها ، وموقوف عليها تتبدل الأحوال وتختلف الأيام وهي لا تتبدل ولا تختلف ، وقد رأينا كيف تنضوي تحت لواء الاسلام ، وتدخل فيما أتى من الاصلاح ، فكان المسلمون لذلك أحق بها وأهلها ، فمتَى تتحقق أماني المخلصين بنهوض هذه الأمة إلى استرداد مجدها الغابر ، وعزها الماضي جاعلة هذه المبادىء الحقة وسيلة الى تحقيق غاية «كنتم خير أمة أخرجت للناس» حقق الله أمالنا ، وأنجح أعمالنا بمنه .

*

القائد المنتظر

غير خاف على أحد ما يتخبط فيه العالم الاسلامي اليوم من فوضى سياسية واجتماعية وخلقية كادت تعصف بكيانه وتذهب بريحه ، فأرثت بين أهله العداوات وهم أخوة ، وجعلت بعضهم إلباً على بعض ، وكان مَثَلُهم في التواد والتراحم والتناصر مثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الإعضاء بالحمى والسهر ، وتسبب عن ذلك أن صاروا في مؤخرة الشعوب وهم كانوا السابقين الأولين ، وتداولتهم الأيدي وحقهم أن يكونوا يداً على من سواهم .

فهل لهذه الفوضَى من علاج تراجع به هذه الأمة سيرتها الأولى من عمل الصالحات ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والوقوف عند غايات الشرع الشريف التي ترتفع بها إلى قمة المجد وذروة العز وتمهد لها سبيلاً إلى الرقي والتقدم ، لا عوج به ولا أمت؟

إن من أعجب الأمور أن يضل الهداة على علم ، ويغوى الراشدون على حلم ، وهذا هو حال الأمم الإسلامية اليوم ، كتاب الله عز وجل بين أيديهم ، فيه الهدى والنور وهم عنه عمون ، وسنة النبي ﷺ تبين لهم ما خفي ، وتقرب ما بعد ، وهم عنها معرضون ، بل انهم ليتدارسون القرآن والسنة ويستخرجون أسرارهما ويجتلون أنوارهما وينوهون بما فيهما من قوانين ونظم تعلو ولا يعلى عليها ..ولكنهم لا يعملون بهما ولا يهتدون بهديهما . ولربما دعا الداعي منهم الأمم والشعوب غير الاسلامية الى العمل بهداية الإسلام واتباع مبادئه السامية لما تكفلُه للبشر من حياة سعيدة واخوة وسلام ولا يَرى أن حاله وحال أمته تكذب ما يقول وتقوم حاجزاً مانعاً بينه وبين من يدعوهم فلا يستجيبون له أبداً ..

ان هذا لهو الضلال المبين ، فهل ياترى تستمر حال المسلمين على ما هي به من الفوضَى والاختلال ، أما آن أن يبعث الله لهم من ينقذهم من هذه الورطة ويسلك بهم سواء السبيل ؟ ان للقيادة الصالحة لشأنا عظيما في اصلاح حال الأمم المتيقظة

الآخذة بحظ من الحضارة والرقي ، وان لنا في إيطاليا وألمانيا لعبرة بليغة في هذا الباب ، فقد قام فيهما زعيمان متحمسان لم يلبثا الا زمنا يسيرا حتَّى قاداهما إلى مواطن العز والفخار بعدما كان أصابهما من الذل والانتكاس ، وكذلك المسلمون لو أتيح لهم اليوم قادة مخلصون يعرفون حقيقة الدعوة الإسلامية وكيف يلائمون بينها وبين طبيعة الحياة العصرية لنهضوا من كبوتهم ، ولرأيت منهم بعد قليل ، العجب العجاب في النهضة والتجدد .

إنما أضل المسلمين متزعمان :

أحدهما : ذهب طرفاً في التقليد لأوربا ، واصطناع أساليب حياتها وطرق تفكيرها ومناهج تعليمها ، بدون أن يميز بين ما هو صالح وفاسد ، وما هو ملائم وغير ملائم .

والثاني : ذهب طرفاً في الجمود والمحافظة على القديم ، فلم يعمل على مسايرة روح العصر ولم يستفد من الفكرة التقدُّمية التي تتضمنتها تعاليم الإسلام .

لم يستفد المسلمون شيئاً من نهضة مصطفَى كمال ، لأنه قطع الوصلة بينه وبين الإسلام وتعمق في تقليد أوربا حتَّى في الموبقات والآثام ، ولم يستفد هو ولا بلاده من نهضته الاستفادة المرجوة لهما فيما لو كان أبقَى على الروابط المعنوية التي تربط بلاده ببلاد الإسلام ، ولم تستفد البشرية من نهضته شيئاً لأنه انضم إلى ركب الحضارة الأوربية مستظلاً بلوائها آخذاً منها كل شيء ، غير واهب لها شيئاً ...وهذه الحضارة قد بدا عوارها وأصبحت في حاجة شديدة إلى التلقيح فليس يفيدها شيئاً ، هؤلاء «الهيروديون» الذين يتحدث عنهم المؤرخ أرنولودتويني في كتابه محنة الحضارة(4) .

ولم يستفد المسلمون شيئاً من نهضة ابن سعود إلا هذا الأمن الذي استدف أمره

---

(4) في هذا الكتاب يبدي المؤرخ العالمي مخاوفه على مصير الحضارة بعد انتقالها من حضانة أوربا إلى رعاية روسيا وأمريكا ، في حالة ما إذا نشبت بينهما حرب ذرية ، وهو لا يعلق أملا في انقاذ الحضارة على الهند والصين ولكنه يؤمل في الإسلام كثيرا . على أنه يقسم المسلمين إلى هيروديين ، نسبة إلى هيرودس ملك اليهود الذي تعاون مع الرومان ، وإلى متطرفين في التعصب على الحضارة ، وكلا الطرفين لا ينتظر منه خير ، فالهيروديون مقلدون لا ذاتية لهم ، والمتعصبون لابد أن تهزمهم قوى الحضارة .

في الحجاز ، وذلك لأنه انكمش على نفسه في عقر الجزيرة ، ولم يأخذ بما توصي به تعاليم الاسلام من الانبعاث والتجدد واعداد وسائل القوة والدفاع ، حتّى لقد كان هو ابخس الدول العربية حظاً في معركة فلسطين . وهكذا بقيت بلاده محرومة من أسباب الحضارة المادية ؛ فلا سكك حديدية ولا نور كهربائي ولا مدارس عليا ولا ، ولا ، ومن كان هكذا فكيف يرجى منه أن يقوم بدور مهم في اصلاح حال المسلمين وتجديد دعوة الاسلام؟

ولئن اخترنا هذين المثالين من بين القادة المسلمين ، فلأن غيرهما ممن يملك أمره ويمكنه أن يعمل شيئاً ، مشتغل بنفسه ، مقبل على ملاذه فلا رجاء فيه الآن على الأقل ، ولا يخفى ان قادة البلاد الاسلامية التي استقلت قريباً وبرزت للوجود بعد ان كانت في حكم العدم لا يشملهم هذا الحكم وهم موضوع رجاء كبير للمسلمين حققه الله .

كتبنا هذا لمن سأل عن حركة ثورية قام بها بعض الناس في ناحية ما[1] ، لو نجحت هل يكون منها للمسلمين خير؟ والواقع أن طبيعة كل حركة مستمدة من طبيعة القائم بها ، والشخص المتزعم للحركة المسؤول عنها هو من التزمت وضيق العطن بالمكان الذي لا يسمح لأية فكرة تقدمية أو جماعة متنورة ان تتنفس معه ، ولا يصلح أمر المسلمين على التعنيت ، ولا على بث روح الكراهية فيما بينهم ، ولا على الاستهانة بأقدارهم ، ولا على الاستعلاء والتأله والتربب . وصدق الله مولانا العظيم في قوله لنبيه الكريم «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» وهذا هو دستور القائد المنتظر الذي لا يصلح الاسلام سواه .

---

(1) كان المعني بالأمر من مشائخ الطرق الصوفية ، وقد أمدَّته بعض الجهات المشبوهة بشيء من المال والسلاح ليحدث تشويشا في البادية التي يوجد بها أتباع له ، فألقي عليهم القبض فصرّحوا بما قاده إلى السجن .

شكوى في كل مكان

نعم شكوى في كل مكان من هذه الأفلام الخليعة التي يقال إنها عربية ، والتي نشطت دور السينما بالمغرب في استيرادها وعرضها على الجمهور منذ أمد بعيد ، مستحوذة بذلك على آخر درهم بقي بيد هذا الشعب الفقير ، وعاملة في هدم حصون أخلاقه التي كانت تحجزه عن كثير من الآثام ، فإذا به يرتمي في احضان الرذيلة منساقاً إليها بالقدوة السيئة والدعوة الملحة تترامى إليه من الشرق الذي يجله ويقتدي بهداه ...

إن أول ريبة في هذه الأفلام ، هي السهولة التي يجدها الموردون لها من مصر في هذه الظروف العسيرة ، لا يقف في طريقهم قانون رقابة ، ولا حاجز جمرك ، ولا صعوبة الحصول على العملة النادرة مما يعانيه تجار البضائع الأخرى غير هذه الأفلام . والكتب أول ما يخطر ببالنا حينما نسجل هذه الملاحظة ، فإن مصر — كما لا يخفى — هي عاصمة الفكر العربي والبلاد المنتجة للكتب والصحف العربية أكثر من غيرها ، ولسنا بحاجة إلى ذكر العراقيل التي توضع في سبيل توريد هذه البضاعة النافعة من مصر، بحيث أصبحت الكتب المدرسية فضلا عن غيرها أنذر من النادر في أسواق الكتب بالمغرب لما كانت هناك أسواق كتب ، وما ذلك إلا لأن هذه البضاعة فيها غذاء للعقل وتهذيب للأخلاق وتنمية للشعور ، بينما الأخرى فيها القضاء المبرم على ما تبقى في نفوس الناس من عفة وحياء وخلق كريم :

وريبة ثانية هي أن أكثر الموردين لهذه الأفلام شركات صهيونية أو تمت إلى الصهيونية بسبب ما ، وذلك ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن القائمين على صنع هذه الأفلام في مصر إما صهيونيون بالذات ، وإما جماعات من الأباحيين لا يقلون عن الصهيونيين سعياً في الفساد وتشويهاً لسمعة العرب في جميع البلاد ؛ فهم بذلك يرضون رغبات الصهيونيين ويجعلون الصهيونيين يعاونوهم ويشجعونهم ، ويتهالكون في هذه الأفلام يعرضونها في دور السينما التابع أكثرها لشركاتهم ، أو لأفراد منهم ،

يهدفون بذلك إلى هدفين اثنين : أحدهما مادي وهو إفقار الطبقة الواطية من المغاربة نساء ورجالاً وأطفالاً ، لأن الجميع يتهافت على مشاهدة هذه الأفلام لما لها من الصبغة العربية ؛ والثاني معنوي وهو افساد أخلاق الجمهور واشاعة الميع والإباحية وجميع الشرور بين البرآء من النظارة .

ولا نعتقد أن مصرياً صميما يرضى عن هذه النتيجة أو يعمل لها من قريب أو بعيد ، فالمصري وطني يحب الخير لمصر ويغار على سمعتها ، والدين الاسلامي وشعائره محترمة في مصر ، بل ان مصر هي حصنه وموئله ، وكيف لا وفيها الأزهر الشريف ودين دولتها الرسمي هو الاسلام فلا يصح أن يكون هذا الاستهتار ، وهذه الإباحية الملعونة وهذا التقليد لأروبا في الرذائل فقط ، هو طابع مصر والمصريين وهو المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية في بلاد الكنانة ويمثل تمثيلاً سخيفاً في هذه الأفلام البائخة .

عزيز علينا والله أن يأتينا هذا الشر من بلاد عزيزة علينا ، وشعبها وحكومتها معقد الرجاء ومناط الأمل لبلاد العروبة كلها ، فلينظر المسؤولون في وادي النيل ورجال الدين وقادة الفكر في علاج هذه الحالة الشنعاء ، وليضربوا على أيدي المتلاعبين بكرامة الدين والوطن ، وليجعلوا حدّاً لهذه الفضائح ؛ فقد طفح الكيل وطم السيل . ولقد كنا نشتكي من هذه المجلات الفاجرة التي تعرض مفاتن النساء ومحاسن الغواني ، تثير بذلك الغرائز السفلى وتلقن دروس الغواية للغافلين والغافلات من الشباب ...وكان خطرها قاصراً على قرائها والراغبين فيها وهم على كل حال جماعات قلائل ، فإذا بهذه الأفلام تغزو الجمهور القارىء والأمي والرجل والمرأة على السواء فإلى أين نحن سائرون؟ ولا يقال اننا بالغنا في هذا الأمر ، وجاوزنا الحد في استنكار الأثر السيء الذي تحدثه هذه الأفلام في نفس الشعب فما نحن وحدنا الناقمون الساخطون المتبرمون من هذه البضاعة المنكرة ، بل ان صيحات الاستنكار والاستهجان لها لترتفع في كل حين ومن كل جهة ، فهذه جريدة «منبر الشعب» التي تصدر بطنجة قد نشرت في عددها 148 مقالاً في الموضوع لكاتب جزائري بعنوان (قل الحق ولو على نفسك ، تنبيه أخوي إلى الحكومة المصرية الشقيقة حول بعض الأشرطة السينمائية الخليعة) أجاد فيه ما شاء ، فذكر ما لمصر من فضل على العروبة ونهضة الاسلام وزعامتها للشرق ، ثم انحى باللائمة على الحكومة المصرية التي تسمح برواج مثل تلك الأفلام التي لا تمت للدين ولا للأخلاق بسبب .

وهذه مجلة «الأديب» البيروتية تنقل في عددها الأول من سنتها التاسعة مقالاً في الموضوع عن مجلة السلوى الأمريكية ، وقد عبر فيه كاتبه عن الخيبة المرة التي لقيها عرب المهجر لما شاهدوا هذه الأفلام وكانوا إليها بالأشواق ، ومن جملة قوله : «فإذا كانت مصر لم تتقن حتّى الآن فن اخراج السينما على الوجه الأكمل لأسباب فنية تحتاج إلى ممارسة طويلة وسليقة صناعية ، فما هو عذرها في سخافة تلك المواضيع التي تبني عليها رواياتها وتعرضها على الجماهير؟

فمعظم هذه الروايات غربي الأوضاع لا يمت إلى مصر والبلدان العربية بصلة ، بل لا نغالي إذا قلنا ان أكثر هذه الروايات ممسوخ عن الحياة الأجنبية في الغرب ...«الى أن يقول» :

«نحن لا نحتاج إلى السينما لتضري فينا جذوة الحب والغرام ، نحن شعب يريد أن يحيَى وينفض عنه غبار الجمود ليسير في موكب الأمم الحية ، أما ان نظل ننوح ونبكي على الحب ونئن من جراح الغرام ونموت تدلها ونتخنث باخلاقنا فهذا لا حاجة لنا به على الاطلاق بل يقعد بنا عن طلب المجد والتسامي ونحن في فجر تكويننا القومي» .

ومن العجيب أن تكون هذه روح العرب وهم بجوار هوليوود ، ولكنهم بجوار الأزهر يميعون حتّى ينكرهم أهلهم وذووهم . فيجب على مصر وحكومتها الرشيدة أن تزيل هذا العار عنها وعن العروبة والاسلام والشرق ولتعلم أنها قدوة الجميع ، فلتكن قدوة في الخير والرائد لا يكذب أهله .

*

الضرائب المالية في الدولة الإسلامية

سألني الأستاذ العربي المسعودي من مراكش عن (الجبايات والحقوق التي كانت لبيت المال على المسلمين وعلى من كانوا تحت الذمة من اليهود وغيرهم) في مختلف الدول الإسلامية بالمشرق والمغرب فأجبته بما يلي :

الجبايات التي كانت تجبى من الرعية في الممالك الإسلامية أو الحقوق المالية التي كانت لبيت المال على الأمة في الدولة الإسلامية تنقسم إلى خمسة أقسام : الصدقة والاعشار والأخماس والجزية والخراج ، وظاهر أن منها ما كان على المسلمين خاصة ، ومنها ما كان على أهل الذمة كذلك ، وأن منها ما كان عاماً لا يفرق فيه بين أهل ملة ودين .

فالصدقة وهي الزكاة معلوم تفصيلها في كتب الفقه ، وهي تجب في العين والحب والثمار وعروض التجارة والماشية ، وهذه انما تؤخذ من المسلمين خاصة عند تمام الحول وما في معناه ، وكانت في زمن الخلفاء الراشدين والعهد الأموي ، وكذا في العهد العباسي الأول تجبى بواسطة عمال الدولة ، وتوضع في بيت المال حتّى توزع على مستحقيها من الأصناف المذكورة في الآية الكريمة «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله».

وأما الأعشار فهي قسمان :

القسم الأول ـ الأعشار التي كانت تضرب على الأراضي التي استأنف إحياءها المسلمون والأراضي التي أسلم عليها أهلها ، والأراضي التي ملكها المسلمون عنوة .. فهذا القسم خاص بالمسلمين ، وقد كان يسقطه بعض الملوك ويزيد فيه بعضهم أو ينقصه جداً فتسميته بالعشر رعيا للغالب ، وفي المغرب كان أول من فرضه عبد المؤمن ابن علي الموحدي .

والقسم الثاني – الأعشار التي كانت تضرب على السفن التي تمر ببعض الثغور ، فكانوا يأخذون منها العشر مما تحمله اما عينا واما نقدا . وكان هذا شائعاً في البلاد الشرقية والمغربية على السواء ، فكان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند تحمل العود والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني الخ . كما كان الأندلسيون يضربونها على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وايابها ، وكان غالبها من سفن الأفرنج ، وزعم بعضهم أن كلمة طريفة (Tarifa) أي تعريفة الضرائب في لسانهم إنما أخذوها من اسم مدينة طريف التي كانت ترسو فيها السفن وتؤدي العشر.

وهذه أيضاً جباية عامة تؤخذ من المسلمين وغيرهم .

وأما الأخماس ، فهي أخماس الغنائم المذكورة في هذه الآية الشريفة «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه» وأخماس المعادن والركاز «وهو دفن جاهلي» أو ما يعبر عنه بالكنز.. وهذه أيضاً ضريبة عامة .

وأما الجزية والخراج فهما متشابهان في أنهما يؤخذان من غير المسلمين ويجبيان كل سنة ولكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالاسلام ، وأما الخراج فلا يسقط ويكون على الأرض.

ثم الجزية إنما تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس ، ولا تؤخذ من عبدة الأوثان ، إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام ، وهذا محل اتفاق . ثم وقع الخلاف في تقدير الجزية وهل هي على الغني والفقير سواء أو بينهما فرق في قدرها ، أو تسقط عن الفقير . وعلى كل حال فهي عند من غالى فيها لا تتجاوز 48 درهماً شرعيا (أي نصف دولار تقريباً).

ومن المعلوم أن لا جزية على النساء والصبيان والعبيد والمجانين والعمي والهرمين وأهل الصوامع أي الرهبان ومن في معناهم .

ومما ينبغي ذكره هنا قول دوزي الهولاندي «إن الجزية أخف بكثير من الضرائب التي كانت تضربها حكومة الرومانيين على الوطنيين . ولذلك كانت الشعوب تهش إلى فتوحات العرب وتحتمي بهم ، لأن الرجل بدفعه دريهمات معدودة كان يأمن على دينه وعرضه ، بخلاف الأمم الاخرى ، فكانت يد المظالم عاملة فيهم تعسف بهم عسفاً وتوليهم خسفاً ، حتّى كان الرجل وما يملك ، ملكاً للحكومة».

ونحن نعلم أنهم كانوا يردون الجزية إلى أربابها حين يعجزون عن الدفاع عنهم كما ذكر البلاذري ، حتّى كان أهل الذمة يقولون والله لولايتكم مع خلافكم لنا في الدين أحب إلينا من ولايتهم وهم أبناء ديننا .

واما الخراج فهو يضرب على الأرض المفتتحة ، واختلف في تقديره ...قال ابن هبيرة : واختلافهم انما هو راجع إلى اختلاف الروايات عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وانما اختلفت لاختلاف النواحي المضروب عليها الخراج خصبا وجدبا ، ولذلك كان قول مالك فيه هو أنَّ المرجع إلى ما تتحمله الأرض فيجتهد الإمام في تقديره مستعينا بأهل الخبرة . وفي زمن عمر كانت الأرض كلها خراجاً لأنه كان لا يرَى قسمة الأرض بين الفاتحين ، لأن ذلك يؤدي إلى أن لا يكون لمن بعدهم شيء فجعلها خراجاً (بمعنَى أنه أبقاها في أيدي أربابها وضرب عليها الخراج الذي ذكرنا أنه يختلف بحسب الأرض خصباً وجدباً) ليبقَى ذلك عطاء مستمراً من أعطيات المسلمين ولكن الحال لم يستمر بعده على ذلك إلا قليلاً ، وصارت الأرض إما خراجية وإما عشرية .

هذه صفوة القول في هذا الموضوع ، وان كان قد يتشعب إلى ما لا تسعه المجلدات الضخمة

وكفى هذه الظاهرة الانسانية الرحيمة ، في الفرق بين حياة الراحة والسماحة التي كان الناس يحيونها تحت ظلال الحكومة الإسلامية ، وبين حياة التعب والإرهاق التي يعانونها من حكومات المدنية الحديثة اليوم .

*

المرأة في الشريعة الاسلامية

لما قال جَزْء بنُ كُلَيب الفقعسي أبياته البليغة في النعي على هذا الحديث النعمة المدعو ابن كوز تطاوله إلى الخِطبة منهم والتزوج فيهم وهي هذه :

تبغّى ابنُ كُوزٍ والسفاهةُ كاسمها لِيَسْتادَ منّا أن شتَونا لياليا
فما أكبرُ الأشياء عندي حزازةً بأن أُبْتَ مزرياً عليك وزاريا
وإنّا على عض الزمان الذي ترى نُعالج من كُرْه المخازي الدواهيا
فلا تطْلُبَنْها يا ابن كُوز فإنه غذا الناسُ مُذْ قَام النبيُّ الجواريا
وإنَّ التي حُدِّثتَها في أنوفنا وأعناقنا من الإباء كما هيا

نعم لما قال ابياته هذه ، لم يكن يقصد إلا إلى تبكيت ابن كوز هذا ، ولم يكن يشعر أنه يوضح لنا حداً فاصلاً في تاريخ المرأة ، قام بوضعه نبي الإسلام عليه السلام . فالمرأة قبل البعثة المحمدية كانت كاللَّقي الذي لا قيمة له ، فإنها إذا سلمت من الوأد وهي طفلة ، ضَنانة بالنفقة عليها ، لم تسلم من شرٍّ منه وهي امرأة ، حيث تُمَلَّكُ لأول طالب يكون له عليها مطلق التصرف ، حتّى ليبيعها لغيره وتورث من بعده ، لكن لما جاء الإسلام ، وقام النبي ﷺ بالدعوة إلى هذا الدين الكريم ، تبدلت الحال ، وأصبح للمرأة كامل الاعتبار ، فأعطتها الشريعة الجديدة من الحقوق عِدْلَ ما عليها من الواجبات ، ولم تكن قبل تتمتع حتّى بحق الحياة ، فكان الابقاء عليها يُعد هبة من الهبات ، وهذا ما عبر عنه الشاعر الحماسي الذي أدرك الفرق بين العهدين بقوله البليغ (غذا الناس مذ قام النبي الجواريا).

ولسنا بحاجة إلى ايراد ما جاء في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، من الحث على الاحسان إلى المرأة وهي طفلة ، والتوصية بها خيراً فيما بعد ذلك ، فإن هذا معلوم لكل واحد ، فضلاً عن أننا نريد أن نعطي هذه الكلمة صبغة البحث المجرد ، ونبعد بها عن الصفة الخطابية ما أمكن ، وإذا كان لابد من سياق بعض

الآيات والأحاديث فإننا ننزلها تنزيلاً علمياً على ما ذكرناه من الوضعية الجديدة التي أصبحت للمرأة بعد مجيء الإسلام.

فمن الآيات القرآنية في التشنيع على عادة الوأد التي كانت منتشرة بين العرب قوله تعالى: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم» وقوله في سياق آخر لهذه الآية: «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق، نحن نرزقهم وإياكم، ان قتلهم كان خطئاً كبيراً» وقوله في الإنتقام للموءودة: «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت» وقوله في القضاء على ما بقي لهذه العادة في نفوس القوم من أثر ذميم: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، الا ساء ما يحكمون».

ومن قوله تعالى في الحض على حسن معاملة الزوجات، ولو لم يكن هناك توافق في الطباع: «وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا» ومنه في الوصاية بهن إذا ساءت علاقة الزوجية مخاطباً للأزواج «فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» ومنه فيما إذا حصل الفراق قبل الدخول، مرشداً إلى ترك أسباب النزاع المادي «ولا تنسوا الفضل بينكم» وهذه الآية دعوة إلى المكارمة لا نظير لها في الحسن.

ومنه في توعد الذين يستطيلون على كرامة السيدات الفضليات «ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

وجاء من الأحاديث النبوية بموافقة معاني هذه الآيات، قوله ﷺ في الحض على تكرمة البنات وعدم تسخطهن «من ابتلى من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن كن له ستراً من النار». وقوله في حسن معاملة الزوجات «خياركم خياركم لنسائهم»، وفي رواية أخرى لهذا الحديث «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»، وقوله في خطبة الوداع «اتقوا الله في النساء، فانكم اخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»، إلى غير ذلك من أقواله ﷺ في هذا الصدد.

وعلى كل حال، فقد جعل الإسلام للمرأة مكانة اجتماعية لم تكن لها عند

العرب ، ولا عند غيرهم من الأمم ، إذ جعلها ربة البيت المسؤولة عن تدبيره ، وهي لم تكن فيه إلا من سقط المتاع ، «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ، فالإمام مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيَّته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيتها ..وبسط يدها في مال زوجها بالمعروف كما قال النبي ﷺ لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب ، وقد اشتكت إليه تقتيره عليها : «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك» وذهب في مراعاة شعورها وحفظ كرامتها ، إلى أبعد الحدود حتَّى نهَى الرجل أن يطرق أهله ليلاً إذا طال السفر مخافة أن يتخونهن أو يلتمس عثراتهن كما في الحديث الصحيح .

ثم إنه بعد أن قرر للمرأة هذه المكانة الاجتماعية الخطيرة ، نجده أعطاها من الحقوق المدنية والسياسية ما لم تظفر به لحد الآن عند أكثر الأمم تسامحاً في حق المرأة ، فأباح لها التصرف في مالها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء إذا كانت رشيدة . ولم يجعل ذلك متوقفاً على اذن أب ولا أخ ولا زوج إلا في جزء خاص من المال في حالة خاصة يساوي الرجل فيها المرأة ، بالنسبة الى ورثته من أولاده وأقاربه الفقراء . وهذا الحق ليس للمرأة الفرنسية التي تعد المثل الأعلى في الحرية والتمتع بأسباب الحياة ، فإن القانون الفرنسي يقيد المرأة عن التصرف في مالها الا برضى زوجها وإجازته .

وأعطى الاسلام للمرأة حق حضانة الأولاد ، وقدمها في ذلك على الرجل ، ولو كان أباً وهي غير أم ، وذلك عند مفارقته لأمهم وعند وفاته بالأحرى وفي ذلك من التقدير لعاطفة الأمومة ، ومن الثقة بكفاية المرأة في هذا المهم العظيم ما لا يخفى ، على أنها تكون أيضا وصية ، فتقوم مقام الموصي في النظر للمحاجير وتدبير شؤونهم المالية وغيرها ، فتمت بذلك مسؤوليتها المدنية من جميع الوجوه .

وغير خاف على أحد أنه يجوز للمرأة الاشتغال بالطبابة ، والإشراف على المؤسسات التربوية ، والمشاركة في الحروب ، بأعمال الاسعاف ومداواة الجرحى ، بل حتَّى بالقتال حينما يتعين على كل أحد وذلك عند مفاجأة العدو لأرض الإسلام ، ولقد رئيت عائشة وأم سليم (رض) في غزوة أحد ، وهما مشمرتان عن سوقهما تنقُزان والقِرب على متونهما فتفرغان الماء في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم .

وأول ما ركب المسلمون البحر للغزو ، كانت معهم أم حرام بنت ملحان التي سبق أن أخبرها النبي ﷺ بذلك .

وأجاز ﷺ أمان أم هانىء لأحد الكفار يوم فتح مكة ، وكان أخوها علي كرم الله وجهه يريد قتله ، فجاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : «زعم ابن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرته» ، فقال : «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء» والأئمة كلهم على اجازة أمان المرأة للحربي ، عملاً بهذا الحديث وبالحديث الآخر الذي هو أعم منه دلالة : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعَى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على ما سواهم».

وعمل ﷺ بإشارة زوجه أم سلمة يوم الحديبية ، وكان قد أنكر حال المسلمين ، فدخل عليها وقال «هلك المسلمون ، أمرتهم مرارا فلم يجبني أحد» فقالت : «لا تلمهم فانهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ولكن أخرج ولا تكلم أحداً منهم ، وانحر بدنك ، واحلق رأسك ، فإنهم يفعلون كما فعلت» فكان الأمر كما قالت ، وسميت بذلك مستشارة النبي ﷺ.

وبالجملة فليس هناك عمل يحق للمرأة أن تزاوله — وهو يتصل من قريب أو بعيد بمهمتها في الحياة — إلا خولها الشارع الاسلامي إياه ، وزاد على ذلك أموراً من السياسة العامة ، لا يزال بعض الناس يمانعون فيها ، وهي كما رأيت من المنصوص عليه ، فالأولى أن تمنحها بموجب شرع ، قبل ان يهدم السد وتنتزعها انتزاعاً . وذلك ما عبرت عنه الآية الكريمة «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » أحسن تعبير وأدقه ، فليس على المرأة واجب لا يكون في مقابلته حق ، وتلك غاية العدالة التي يستوي عندها الرجال والنساء ، وتوسع بعض فقهاء الاسلام فيما يجوز للمرأة أن تليه من الأعمال ، فقال أبو حنيفة : انها تلي القضاء في الأموال دون القصاص ، وروي هذا القول أيضاً عن مالك ، وقال محمد بن الحسن ومحمد ابن جرير الطبري : يجوز أن تكون المرأة قاضية على كل حال ، نص عليه الباجي في المنتقَى .

ونحن إذا نظرنا في الدلائل والأصول ، لم نجد هناك نصاً يمنع المرأة من أن تلي القضاء وغيره من الأعمال الحكومية باستثناء الوظائف الرئاسية التي هي ولا شك المراد بقوله ﷺ «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وقد قال ﷺ ذلك الحديث في أهل فارس لما قيل : إن كسرى مات وان رعيته ولوا عليهم ابنته .

نعم إذا كانت ولايتها لشيء مما ذكر في دائرة النظام الاسلامي ، فينبغي أن يعرف أنها لابد أن تتقيد بواجبات الإسلام في المظهر والسلوك العام ؛ فتتجنب هذا التبرج الآثم ، والاختلاط المريب ، وتلتزم التصون والعفاف ، على ما كانت عليه المرأة الإسلامية في العهد الماضي ، لما قال أولئك الفقهاء قولهم وأباحوا لها من ولاية القضاء ما أباحوا . أما مع التبرج وابداء الزينة ، والخلوة بالأجنبي ، فإنه لا يصح أن تباشر شيئاً من ذلك داخل النظام الإسلامي الذي له في مسألة المحافظة على الأخلاق نظر معروف .

وهذا كله قد يكون محل وفاق بيننا وبين الذين تختلف أنظارهم في الموضوع ، ولكنهم يعترضون بأن ما ذكرناه منقوض بما قسم الإسلام للمرأة في الإرث من قسمة ناطقة بعدم المساواة بينها وبين الرجل ، فإن ذلك بخس عظيم لحقها فأين ما تدعونه لها من توفية الحقوق وحفظ الكرامة؟.

وهؤلاء المعترضون ، يجهلون ان الشريعة الاسلامية شريعة عملية ، وان مبناها على أساس : خذ واعط ، كما أشارت لذلك الآية السابقة : «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» فالمرأة في الاسلام تأخذ الصداق ولا تعطيه ، كما عند الأمم الأخرى ، وتجب نفقتها على الزوج ، وان كانت غنية وهو فقير ، وليس عليها أن تخدمه ، بل عليه هو أن يتخذ لها خادماً إن كانت من ذوات القدر ، ففي مختصر الشيخ خليل المبين لما به الفتوى عند المالكية «واخدام أهله وان بكراء ولو بأكثر من واحدة» ولذلك فهي في الإرث تأخذ نصف ما يأخذه الرجل الذي عليه كل هذه الواجبات، وذلك من الانصاف الذي لا يمتري فيه اثنان، بل الواقع أن لها في هذه القسمة تمييزاً على الرجل ، فلو أننا قسمنا لهما بالتسوية وكلفناها بتلك الواجبات لكان عليها حيف كبير في ذلك ، فضلاً عن الغضاضة التي تلحقها في دفع الصداق إلى الزوج ، وما يرضي الزوج من الصداق؟..

على أننا لا ينبغي أن ننسى هنا أن بعض الأمم المتحضرة تخص الابن البكر بإرث الوالد ، فتكون البنت عندهم محرومة بالكلية من أي حق في إرث والدها ، فأين يجيء ذلك مما فرضه الإسلام؟.

ويعترضون بأن الاسلام جعل حق الطلاق للرجل دون المرأة، وفي ذلك تمييز له عليها، وما دروا بأن الحكمة في ذلك تقليل حوادث الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله على ما يروى، فإذا نظرنا من وجهة واقعية إلى علاقات الأزواج

بعضهم مع بعض ، وما يمكن أن تتعرض له هذه العلاقات يومياً من توتر ثم انقطاع ، نجد أن الطلاق يتهدد الحياة الزوجية كل يوم بسبب الخلافات التي تنشب عادة بين الأزواج . والمرأة بسرعة انفعالها ولكونها قد تكون لها ضرة أو ضرات لابد أن تلجأ إليه أكثر من الرجل ظانة أن فيه راحتها من متاعب الزوجية . مع أن حقيقة التعب النفسي والجسماني هي في تأيمها وحياتها بدون زوج ، بخلاف الرجل فإنه أكثر ضبطا لعواطفه وأكثر تقديراً للموقف ولا سيما حين يكون زوجا لأكثر من واحدة فلا يسرع إلى الطلاق إسراع المرأة ، ولا يرى فيه الخلاص الذي تراه المرأة في مشاكل البيت التي لا معدى عنها وذلك فضلا عن أنه الذي دفع الصداق وأنفق الكثير من ماله في تكوين هذا البيت المهدد ، فهو إن لم يمسك عن الطلاق لمانع أدبي فلابد أن يمسك عنه لمانع مادي . وهذا هو معنى قول فقهائنا بلغة الفقه الساذجة (إنما الطلاق لمن أخذ بالساق) ولعله لو وضع إحصاء في بلاد أوربا وأمريكا التي تتابعت الآن في الطلاق تتابعاً كبيراً ، بعد أن كانت لا تقول به ، لوجد أن أكثر طالبيه من النساء ، وان لم يكن كذلك فلابد أن يكون عامل تبرج المرأة وتحللها من كثير من الواجبات الخلقية ذا أثر بليغ في حمل الرجال هناك على الطلاق .

وإذا كان الاسلام لم يجعل للمرأة حق الطلاق مباشرة ، فقد جعله لها بواسطة : وهي ان تشترطه في عقد الزوجية ، أو أن تختلع من الزوج ببذل بعض العوض في مقابلة النفقات التي اقتضتها رابطة الزواج ، وأعظم من ذلك ، أنه جعل لها الحق في دفع التهمة عن نفسها بمجرد يمين تسمى لعاناً ، فتحرز بذلك نفسها وشرفها . وليس لهذا التشريع وجود في قانون غير قانون الإسلام ، مع أن مورده هو أكثر الأسباب لوقوع الطلاق في بلاد الغرب ، على أن الكثير من فقهائنا ذهبوا في الستر على المرأة إلى أبعد من هذا الحد ، فقرروا أن أمد الحمل في أقل تقدير : ستة أشهر ، وفي أكثره : خمسة أعوام . فإذا جاءت المرأة بولد لاقل الأمد ، وهي في عصمة زوجها ، أو لأكثره ، وهي مطلقة أو متوفي عنها ، فهو ولد شرعي لا يحق للزوج ولا لأهله أن ينفوه عنهم مع مخالفة ذلك للنواميس الطبيعية ، ولكن الشارع الإسلامي الذي أمر بالمحافظة على الأعراض والانساب وقال : «ادرأوا الحدود بالشبهات ...والولد للفراش» اتاح الفرصة الاجتهادية في هذا الحكم للفقهاء الاعلام ، فحموا بذلك المرأة المسلمة بل الأسرة الاسلامية من أن يتطرق اليها القيل والقال . اللهم الا إذا ألح الزوج في الأمر ، فالمخلص هو اللعان المذكور آنفا .

ومن التشريعات الإسلامية التي تترتب على الطلاق ، وفيها محاسنة للمرأة ، ما أمر به الله تعالى من تمتيع المطلقات في قوله : «ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف ، حقا على المحسنين» وقال في الآية الأخرى «وللمطلقات متاع بالمعروف ، حقا على المتقين» ويمكن للقاضي بالاستناد إلى هذا الأمر أن يفرض للمرأة في مال مطلقها مبلغاً يعوض لها ما لحقها من الضرر بسبب الطلاق ، إذا ثبت ذلك ، وهومعروف ، أمر به الكتاب العزيز في حالة الفراق العادية على سبيل الالزام فيما إذا كان الفراق بحالة فيها ضرر على الزوجة ، ويكون تقديره مما يحمل على التفكير كثيراً في ايقاع الطلاق قبل الاقدام عليه .

ويقول المعترضون أيضاً أن التشريع الذي يبيح للرجل تعدد الزوجات، لا يكون في مصلحة المرأة مطلقاً، ولا يعدو أن يكون استهتاراً بحقوقها التي تزعمون أنه يكفلها فضلا عما يسببه للأسرة التي تبتلى به من حياة اجتماعية مضطربة؛ والواقع أن التشريع الاسلامي الذي يحمل طابع العمومية قد يضحي بمصلحة الفرد لمصلحة الجماعة تضحية طفيفة كما هنا . فإنا إذا نظرنا للمسألة من الناحية العاطفية ، نجدها ليست في مصلحة المرأة كفرد ، ولكن إذا نظرنا إليها من الناحية العملية نجدها عين المصلحة بالنسبة إليها كجنس ، وذلك ان ارتفاع نسبة المواليد الانسانية في الإناث عنها في الذكور الذي هو ظاهرة طبيعية لا يمكن إنكارها ، يسبب أزمة اجتماعية في كل الأمم ، هي نقصان عدد الأزواج عن عدد طالبات الزواج ، ويتفاحش هذا النقصان بالحروب التي تحصد الرجال حصداً ، فضلاً عن كون الوفاة الطبيعية المبكرة بين الرجال أكثر منها بين النساء كما هو معلوم . فإذا لم نحل هذه الأزمة بتعدد الزوجات فإن كثيرات من الفتيات البريئات ، فضلاً عن الايامى الشابات يعنسن ويبقين محرومات من الحياة الزوجية ومباهجها التي يتمتع بها من أسعدهن الحظ بالزواج ودوامه . ولقد جاء في بعض الاحصائيات أن بمدينة لندن وحدها مائة ألف فتاة عانس يائسة من الزواج ، وإذا كان هذا في انكلترا فكيف يكون الحال في ألمانيا التي خسرت في الحربين العالميتين الأخيرتين عدة ملايين من زهرة شبابها وخيرة رجالها .

ولاشك ان ما تقاسيه الفتاة العانس والمرأة الأيم من كآبة العيش وجهامة الحياة ، هو مما يعفي على ما تشكو منه المرأة التي لها ضرة من خيالات الحب وأوهام الغيرة ، فكيف لا نضحي بهذا لذلك .

على أن هذا كله ، انما هو بالنظر إلى المسألة من الناحية الوجدانية والجنسية ، واما بالنظر إليها من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، فان العدالة تقضي بوجوب تكافؤ الفرص بين أبناء الأمة الواحدة والا يعيش شخص في بحبوحة النعيم بينما يحرم آخر حتّى من الضروريات التي لا غنى عنها ، ولذلك نرى أن المصلحة العمومية في هذا التشريع رجحت بالمصلحة الفردية ، وان المرأة التي تشكو من مقاسمة ضرتها دفء الزوجية وخيرها الكثير انما هي امرأة أنانية تقدم مصلحتها الشخصية على مصلحة الأمة ، فلا ينبغي أن يقام لشعورها وزن .

وإذن فمصلحة المرأة الحقيقية هي ما كفله هذا التشريع ، والاستهتار بحقوقها هو حرمانها من التمتع بمزاياه ، والحياة الاجتماعية المضطربة هي في ترك قسم غير قليل من بنات الأمة محروماً معرضاً للغواية والاغراء ، نتيجة لحياة الخصاصة والتشوف التي يضطر إليها اضطراراً ، وما كان الإسلام ليقر هذا التشريع — بعد تحويره — وقد كان في الأمم السابقة إلا لتفادي ما يترتب على ابطاله من مفاسد خلقية واجتماعية .

ولعله قد آن الأوان لمعرفة ما في شرائع الاسلام من خير وصلاح للانسانية ، فبعد الاقرار بضرورة الطلاق واصطناعه في أكثر أمم الحضارة المسيحية اليوم ، نرى أن هؤلاء المعترضين يدلفون أيضاً إلى الاعتراف بضرورة تعدد الزوجات لانقاذ المجتمعات الانسانية مما تتخبط فيه من الويلات . فهذا الكاتب الألماني الشهير إميل لودفيك يقول في احدث مؤلفاته ، وهو كتاب له عن الحياة والحب : «ان تعدد الزوجات أمر طبيعي ، وعدمه مخالف للطبيعة الانسانية» وجاء في كتاب قصة الحضارة للكاتب الأمريكي الكبير ويلي دويرانت : «ان اصطناع المسيحيين لنظام الزوجة الواحدة يعد مخالفة للانجليل الذي يبيح التعدد » فهل يعني هذا تراجعاً في الفكرة الغربية بالنسبة إلى هذا التشريع ؟

بقي من المسائل التي ربما تورد على موضوع حقوق المرأة في الإسلام وعدم مساواته لها بالرجل مسألة الشهادة ومسألة الدية .

فأما مسألة الشهادة فهي جعله شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ، ونحن نرى أن في ذلك رفقا بالمرأة وابتعاداً بها عن أسباب الخصومة ، لأن الشهادة مهمة خطيرة ، تترتب عليها مسؤوليات كثيرة ، وربما تسببت عنها عداوات وأضرار شخصية مختلفة ، فالأولى بالمرأة الا تتورط في حبالتها ، وان كان ولابد فان اعتضادها بامرأة أخرى يخفف عنها عبء هذه المسؤولية ويجعل المشهود عليه يتروى في أمره ، فلا يتعجل بالخصومة ولا بما ينشأ عنها من الأذى . أما إذا لم توجد المرأة

الثانية فإن الواحدة تكون حينئذ معفية من أداء هذا الواجب ومتحللة من جميع تبعاته. ومن تأمل قوله تعالى : «واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا» أدرك خطورة أمر الشهادة ، وخاصة من قوله : (ولا يأب) فإن الاباء انما يكون من شيء ثقيل على النفس وهو ما أراح الله منه المرأة ، وحط عنها وزره ، إلا أن تعينها عليه امرأة أخرى .

وأما مسألة الدية ، فهي وان لم تكن مما يورد في هذا الصدد ، فانا نحب أن نوردها، ونجيب عن شبهتها لئلا يلوح بها بعض المعترضين فيما بعد. وقد اشتهر بين الفقهاء أن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية فإذا بلغت الثلث كانت إلى النصف من دية الرجل، هذا هو قول جمهور أهل المدينة والفقهاء السبعة، وبه أخذ مالك، وأصله ما روي عن عمرو بن العاص مرفوعاً: عقل المرأة مثل عقل الرجل حتَّى تبلغ الثلث من ديته . قال ابن عبد البر ، واسناده ضعيف ، إلا أنه اعتضد بقول ابن المسيب هي السنة . قال الباجي : واختلف على عمر وعلي فروى عنهما باسناد ضعيف انها على دية الرجل في القليل والكثير، وبه قال أبو حنيفة والشافعي ؛ وروي عنهما مثل قولنا أي قول المالكية من أنها على النصف من دية الرجل .

هذا هو حكم المسألة في المذاهب الاسلامية ، ولا يخفى أنه بعد الحكم بضعف الحديث تبقَى المسألة اجتهادية ، ولا يكون المذهب الفقهي حجة على الإسلام إذا خالفه غيره ، فكيف إذا كان سنده ضعيفاً . وقد تساويا في القصاص في القتل ، والدية انما هي تقويم للدم فلا مندوحة عن التساوي فيها أيضا .

والخلاصة أن المرأة في الاسلام لها مركز اجتماعي هام ، ولها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات فهو يعتبرها عضواً عاملاً في الهيئة الاجتماعية : تسعد الأمة بسعادته ، وتشقى بشقائه ، ولم يزو عنها من التكاليف الا ما زوته عنها الطبيعة ، وكان لا يتوافق وكرامتها التي يحرص كل الحرص على حفظها وعدم المساس بها ...

وقد تبجحت الأمم المعاصرة كثيراً بتحرير المرأة ، ولكنها — قانونيا — لم تسمح لها بعشر ما سمحت لها به الشريعة الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ، اللهم الا مظاهر فارغة وتمويهات باطلة تغر وتغوي ، ولكنها لا تغني من الحق شيئاً . فمن السخف المقارنة بينها وبين الحقائق الثابتة التي لا يتطاول إليها الشك والارتياب .

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

جَرّبـوا الإســلام

أنا لا أخاطب غير المسلمين ، ولا أدعو أهل أمريكا وأوربا إلى الإسلام ، فما كان لي أن أفعل ذلك وأنا أرى المسلمين منحرفين عن تعاليم دينهم وما جاء به ، فهم أول من يدعى للتمسك بعروته الوثقى وهل أغنت الدعوات من هذا القبيل التي وجهت إلى القوم بلغاتهم ومن طرف رجال لهم عندهم مكانة ، شيئاً؟

هذا (چوت) شاعر الألمان يمتدح الإسلام ويقول : «ان كان هذا هو الاسلام فنحن مسلمون» ولكن ما هي النتيجة العملية لهذه الدعاية من فيلسوف أديب ، كچوت ، وألمانيا ما زالت من أكثر الشعوب تعنتاً على الإسلام والمسلمين ، ومستشرقوها في طليعة الدساسين الذين شوهوا محاسن هذا الدين ، بله ما كانت عليه سياستها من اعتبار الفوارق بين الأجناس ، وكون العرب حملة الهداية الإسلامية أحط جنس بعد اليهود ؟...

وهذا الفيلسوف الفرنسي (ڤينو) ألم يرجح الاسلام على جميع المذاهب السياسية والاجتماعية والحلول التي وضعت لأزمة المدنية الحديثة ؛ فلا الاشتراكية في نظره ولا الشيوعية ولا غيرهما من النظم الجديدة تستطيع أن تنقذ البشرية من هذه الأزمة الخلقية والسياسية التي تتخبط فيها كما يستطيع الإسلام ، وكم أشاد بروحانية الشرق وسمو الاجتماع الاسلامي سواء في كتابه «أزمة المدنية الحديثة» أو في كتابه «الشرق والغرب» أو غيرهما تصريحاً وتلويحاً ، ولم تكن النتيجة إلا اقتناعه هو وحده بصدق نظره وارتحاله إلى مصر يقضي شيخوخته بين التأمل والتفكير في منزله وعبادة ربه في ضريح سيدنا الحسين إلى أن توفي .

وإني لأعرف بعض تلاميذه الذين طبعهم بطابعه وخرجهم في مدرسته ، وهم مثله من أكثر الناس افتتاناً بدعوة الاسلام ، وشغفاً بمبادئه العليا وفلسفته النقية ، ولكن أين يجيئون من هذه الأمة الفرنسية التي تعد أربعين مليوناً وهي برغم أنف لا دينيتها ما تزال تعتبر ابنة الكنيسة البكر بما ترفع من سلطان الكثلكة على الاسلام ، وما تتجنّى عليه وعلى أهله من بغي وعدوان!

وانكلترا التي تحككت بالاسلام والمسلمين قروناً عديدة والتي اشتهرت بحب الإغراب في كل شيء ، ألم يدعها (اللورد هدلي) في كتابه المعروف «الدعوة إلى الاسلام» ؟ ثم ألم يتنبأ كاتبها الفذ (شو) بأن الاسلام هو دين العالم في المستقبل ؟ فهل بلغ ذلك إلا إلى حفنة صغيرة من أهلها اعتنقوا هذا الدين الحنيف وإن بهم لحاجة كبيرة إلى من يُعرفهم حقيقته ، ويبين لهم أسراره ، من الوجهة العملية ، أكثر من الوجهة القولية .

واليابان ، بلاد الشمس المشرقة ، هذه الأمة الوثنية التي كم تطلعت إلى دين جديد يناسب حياتها الجديدة ، وكم عقدت فيها المؤتمرات للنظر والمقارنة بين الأديان ، وكان خليقاً بها أن تصطنع الإسلام وتتخذه ديناً لها من بين سائر الأديان ، مع ما انبت فيها من الدعاة الهنود وغيرهم مبشرين به وبمباديه السمحة ، إلا أنه لم يبلغ فيها تعداد المسلمين إلى ما قبل الحرب الأخيرة أكثر من عشرين ألفاً؟...

فهل هذا من ضعف الدعوة أو ضعف الدين؟...

أما ضعف الدين فليس هناك من يقول به ، وأما ضعف الدعوة فيمكن أن يقال انه لابد من جهود أكثر ومن طرق أحدث للنفوذ إلى قلوب المدعوين ، واصابة الهدف المقصود من اسلام شعوب أوربا وأمريكا ، لو لم يكن هناك ما يعرقل نجاح هذه الدعوة ، ولو بلغت ما بلغت من القوة ويشل حركتها ، وان اتخذت لها جميع الاستعدادات الممكنة ، ألا وهو مخالفة حال المسلمين لمقتضى أوامر دينهم ، واستبدالهم حقائقه الناصعة وأصوله العظيمة بالبدع والخرافات التي قادتهم إلى بؤرة الجهل والرذيلة ، وجعلتهم مضرب الأمثال في الذل والهوان...

فالأروبي والأمريكي والياباني ، حينما يرى المسلمين على ما هم عليه من الجمود والتأخر والجبن والخنوع ، واستيلاء الأجانب على بلادهم واستغلالهم لخيراتها دونهم ، وتجنيدهم لشبانهم في الحروب وعبثهم بمصايرهم ، وهم غير مستنكرين ، يحكم بأنهم عبيد العصا وأنهم لا كرامة لهم وأنهم والحيوان الأعجم سواء ، وربما حكم أن دينهم يأمرهم بذلك ، فاستنتج انه دين لا يجامع الحياة الشريفة والعزة القومية ، وانما يأمر بالذل والاستكانة للقوي الغالب ، فكيف يرجى منه أن يقبل عليه أو يسمع من الدعاة اليه؟..

والأغلبية من كتابهم على هذا الاعتقاد ، فإنا نرى من تحليلهم للعقلية الشرقية أي الاسلامية وتفسيرهم لعقيدة القضاء والقدر عند المسلمين ، ما ينبئنا بحقيقة رأيهم فينا وفي ديننا . وقد صارت لفظة (مكتوب) عندهم مما يتندر به علينا لأنها ترمز إلى الاستسلام والرضى بالواقع كيفما كان .

وإذا كان هذا رأي مثقفيهم ، فما بالك بعوامهم وهم السواد الأعظم؟ ويرشدك إلى هذا محافظة المسَيطرين في البلاد الاسلامية على العوائد البالية والبدع الضالة ، بدعوى أنها محافظة على الدين واحترام لشعور المسلمين ، وهم إن كانوا صادقين في ذلك لم يخالفوا عما قاله الشاعر العربي حين قدم خيبر فقيل له ان شئت الا تؤذيك حُمّاها فانهق ببابها عشر مرات .

وقالوا احْبُ وانهَقْ لاَ تضيرُك خيْبرٌ وذلك من (دين اليهود) وَلوع
لعمري لئن عشَّرتُ من خشية الردى نَـهِيـقَ حـمير انني لـجَـزُوع

وهل هذا من دين اليهود؟ ولكن هل يُكلف الأجنبي — كهذا الشاعر — نفسه بدراسة دين القدم حتَّى يعلم ما هو من دينهم وما ليس منه؟..

الواقع أننا بانحرافنا عن ديننا وعدم اتباع جادته وتأويلنا لأصوله ، حتَّى يشايع أهواءنا واهتمامنا بالنوافل منه دون الفروض ، قد نشرنا له دعاية سيئة بين الأجانب ، وفي الوقت الذي كثر فيه اهتمام الناس بأمر الدين وتطلعت النفوس إلى الحياة الروحية ، بعد فشل الحياة المادية في أسعاد البشر ، في هذا الوقت الذي يوجب علينا أن نعرض الإسلام أجمل عرض لنحببه إلى هذه النفوس التواقة ، ترانا نصُدُّ الناس عنه صداً ونقيم بينهم وبينه سداً من أقوالنا وأفعالنا واعتقادنا وسلوكنا ، فنجني عليه وعلى أنفسنا من حيث لا نشعر .

فتلك عقيدة القضاء والقدر مثلاً التي أصبحنا نعير بها ، ويقال انها السبب الأول في استسلامنا ، ألم تكن هي الحافز لأسلافنا على خوض الموت والاستهانة بصعاب الحياة ، حتَّى بلغوا ما بلغوا من العز والسؤدد لأنهم لم يكونوا ينتظرون الأحداث ، حتَّى تقع ، ثم يقولون هذا ما قدر الله ، بل كان الواحد منهم يهب لمقارعة الخطوب ومنازلة الحوادث ، فاما إلى الصدر وإما إلى القبر . فلما عكسنا نحن القضية وفهمناها فهما مقلوباً أخلدنا إلى الأرض وصرنا نتعلل بالأوهام . وكيف يصح أن يكون المكتوب حجة للمغلوب والله عز وجل يقول «ولا تهنوا في ابتغاء القوم ،

ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون» فهذا أحسن تفسير لهذه العقيدة وهو أنه إذا كان الموت ـ مثلاً ـ أمراً مقدراً وقضاء محتوماً ، فلماذا الجبن والخور والضعف والوهن مع ما أعد الله للشهيد من الثواب الجزيل والنعيم المقيم ...

وهكذا كل تعاليم الدين الحنيف لو أقمناها كما أمر الله ، لاستقام حالنا ، ونجح سعينا ، وأدال الله لنا من عدوّنا ، وعلت كلمتُنا على الكلم ، وكان في ذلك دعاية وأي دعاية للإسلام وظهور له وأي ظهور على الأديان ، ولدخل الناس فيه أفواجاً وعمت هدايته العالم أجمع .

فجزبوا الإسلام أيها المسلمون ...

*

منشور غريب

في منشور قديم للصدارة العظمى بالرباط ، ترشد هذه الصدارة جميع قضاة المغرب إلى أنهم لا ينبغي أن يقبلوا كل من يتقدم إليهم بطلب الدخول في الاسلام من أهل الأديان الأخرى ، حتى يبحثوا عن حاله والسبب الداعي له إلى تغيير دينه ، لأنه ربما يكون جنى جناية أو لزمته تبعات من ديون وغيرها . فيريد أن يجعل الاسلام ستاراً بينه وبين هذه الأمور ولا يكون إسلامه صادقاً وخالصاً لوجه الله .

ثم بعد اجراء هذا البحث يلزم رفعه إلى الصدارة وهي تكون صاحبة الرأي الأخير في الاذن بقبول إسلام الطالب وعدم قبوله ، وحسب القضاة حينئذ الامتثال والصدارة وحدها هي المسؤولة عن هذا الشأن ، لأنها — كما يقول المنشور — لاحظت أن مشاكل عديدة تنشأ من دخول بعض الناس في الإسلام ، فلم تر حلاً أوفق من ضبط الأمر باصدار هذا المنشور .

هذا مضمن المنشور الغريب ، وقد اطلعنا عليه ولكن نصه ليس بأيدينا ، وعلى كل حال فهو لا يختلف كثيراً عما ذكرناه ، وبما أننا مسلمون أولاً ، ومهمتنا هي الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ثانياً ، فان الواجب يقضي علينا بمناقشة هذا المنشور وابداء ما فيه من النقص والاختلال سواء من الوجهة الشرعية أو القانونية ، ومرادنا بذلك النصيحة فقط ، وقد قال ﷺ الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

فأولا — انه لا يجوز شرعاً تأخير قبول من يريد الدخول في الإسلام ولو هنيئة قليلة من الزمن ، لأنه رضىً ببقاء الكفر واستمرار الضلال وعدم مسارعة إلى انقاذ الهالك من الهلك ، وتغافل عنه حتى يقع في الخطر فكيف بتأخيره مدة البحث عنه ، واستيار الصدارة ، وذلك زمن طويل يعرفه من يعرف تصرف الوزارات في المسائل الصغرى ، فما بالك بمسألة مهمة كهذه ، وقد تجيب الصدارة بالرفض ولا وجه له من الشرع مطلقاً ، وقد يخترم الطالب فيموت على كفره أو يوسوس له موسوس فيعدل عن عزمه ، فعلى من تكون المسؤولية حينئذ؟..

وقد عد فقهاؤنا هذه المسألة من الكفر كما في شفاء الغليل لابن غازي عند قول المختصر (لا بأماته الله كافراً) على الأصح ، قال كذا ذكره ابن راشد القفصي عن فتيا شيخه القرافي . وزاد عنه الخطيب : يأتيه كافر يريد أن ينطق بكلمة الاسلام ، فيقول له اصبر حتَّى افرغ من خطبتي ، فإنه يحكم بكفر الخطيب لأن ذلك يقتضي أنه أراد بقاء الكفر زماناً ما . قال سمعته من شيخنا القرافي ولم أر موضعه ، ولم أر مسألة الخطيب لغيره ، وعنه نقلها في التوضيح ، وكفى بهذا واعظاً وزاجراً لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ثانيا – لا يسقط الاسلام عن معتنقه تباعة جناية جناها أو معاملة له مع الغير ، فان كان عليه دين فالإسلام أول ما يلزمه بادائه ، وإن لزمه حد أو عقوبة فليس هناك من المسلمين من يمنعه من إقامتها عليه ، لأن السيطرة اليوم لغير المسلمين[1] فالقول بأن معتنق الاسلام يتخذه ستاراً يمتنع به عما يلزمه من المؤاخذات هو قول منقوض ودعوَى باطلة لا تستحق أن تسمع .

بل الذي يكسبه مريد الاسلام بدخوله فيه هو حرمانه من بعض الحقوق ، كحقه في إرث مورثيه ، فإذا رضي هو بذلك فكيف نسعَى نحن في حفظ هذا الحق له ؟ أما إذا أريد حماية حق وارثه فهذا قد يمتنع بغير الاسلام ، وذلك بأن يهب الشخص المريد للاسلام ما له في حياته لغير وارثه ، ويصرح بمنع وارثه من ارثه — وهو حق تجيزه بعض القوانين الأجنبية — فماذا بقي من حماية حق الغير بمنع هذا المسكين من اعتناقه ديناً ارتضاه وفضله على سائر الأديان .

ثالثا – لا يجوز لنا البحث عن ضمائر الناس ودخائل نفوسهم ، والشارع الحكيم أمرنا أن نحكم بالظاهر ، وكان النبي ﷺ يكتفي من مريد الاسلام بالنطق بالشهادتين ، وبما هو دون ذلك كالسوداء التي قال لها : أين الله ؟ فأشارت بيدها إلى السماء فقال إنها مؤمنة . وقال لأسامة بن زيد وقد اتهم مسلماً بعدم الاخلاص : هلا شققت عن قلبه؟ فمالنا وكون اسلام هذا الطالب صادقاً أو غير صادق؟..

رابعا – والصدارة تعرف أن اسلام الكافر لا يتوقف على اعتراف القاضي أو

(1) كتب هذا المقال في أيام الحماية ، وظاهر أن المنشور كان من وحيها .

غيره ، فإنه يثبت بمجرد التلفظ بالشهادتين ، وقد تعرض الزرقاني لمسألة الخطيب المذكورة آنفاً عند قول المصنف (وفسخ لاسلام أحدهما بلا طلاق) الخ . وذكر قولاً بعدم كفره قائلا ...

... «لأن اسلام الكافر لا يتوقف على سماع الخطيب له» ...

وإذن فالمنشور كله لا داعي له ، وسواء اعترفت الصدارة أو لم تعترف . فالشخص الذي نطق بالشهادتين مسلم له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن يقف في وجهه انما يصد عن سبيل الله من آمن به .

وعلى كل فكيف ساغ للصدارة أن تصدر هذا المنشور في حق مريد الإسلام ، ولم تصدر نظيره في حق من يريد الخروج من الإسلام واعتناق دين آخر؟ هل غاب عن علمها أن هناك جماعات كثيرة ممن يعملون على ردة المسلمين كباراً وصغاراً ويغوونهم بالمال وغيره من المغريات حتّى يرتدوا ، وتنشأ عن ارتدادهم ــ حقا وبالفعل ــ مشاكل عدلية ، لأنهم على كل حال يبقون مغاربة ، فمرجع أمرهم إلى المحاكم المغربية ، أما غيرهم من الأجانب فهم وان أسلموا لا نظر للعدلية المغربية في أمرهم[1] ، فهلا حمت حقوق هؤلاء المرتدين كما أوهمت أنها تحمي حقوق أولئك «المسلمين» وما كلفها الله بهم كما كلفها بمن هم إلى نظرها وفي دائرة اختصاصها؟.

لا جرم أننا نعيش في جيل يتنزل عليه قول الله تعالى «وقال الشيطان لما قضي الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي »، الآية . فهذا المنشور يجب أن يلغى ، والأمل في ذلك معلق بهمة سيدنا المنصور بالله حامي الملة والدين أمير المؤمنين محمد بن يوسف أيد الله ملكه .

---

(1) كتب هذا المقال قبل الاستقلال والغاء الامتيازات الأجنبية.

الزكاة ووجوب تنظيمها

ورد خبر من مصر يقول بأن فقراء المسلمين قدموا عريضة إلى رئيس الحكومة يطالبون فيها بجباية الزكاة اجباراً من الأغنياء وتوزيعها على المستحقين..وهو خبر ذو مغزى سياسي وديني في آن واحد ، فمن جهة أولى يدل على أن الشعب الإسلامي الذي ألف الخنوع ومرن على الاستعباد واستساغ تضييع الحقوق ، قد بدأ يتحرك ويهم بالثورة والانتقام من مستغليه والمتلاعبين بحقوقه ومقدراته ، ومن جهة ثانية يدل على أن هذا الشعب قد اختار لنفسه الطريقة المثلى التي تحل مشكلاته جميعاً ، وهي طريقة الاصلاح الاسلامي ، ونبذ عنه ظهريا جميع المذاهب والآراء الهدامة التي لا تتفق بحال مع مقوماته الاجتماعية الخاصة .

وإذا كانت الآية الكريمة تقول «وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» فان من شأن فقراء المسلمين أن يطالبوا بحقهم في أموال الأغنياء ويتخذوا لذلك كل الوسائل المشروعة . ومن واجب الحكومات الاسلامية أن تعينهم على ذلك وتنتزع لهم هذا الحق انتزاعاً ممن هو في ذمته . ولها في الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رض) اسوة حسنة ، فإنه قد وضع يوم قال «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم عليه» أقول وضع أساس التنظيم الاجتماعي في الإسلام وأجبر المسلمين على قبوله والعمل به[1] .

فكيف لا تتخذ الحكومات الاسلامية الاجراءات اللازمة لاخذ فريضة الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء لسد حاجتهم وكفاية مؤونتهم كما تتخذها لقبض الضرائب المختلفة واستخلاص الغرامات التي ما أنزل الله بها من سلطان مع أن في

---

(2) ارتد بعد وفاة النبي ﷺ كثير من قبائل العرب وامتنع بعضهم من أداء الزكاة ، وان لم يرتدوا ، فقاتل أبو بكر المرتدين والممتنعين من أداء الزكاة على السواء ، وخالفه الصحابة في ذلك . ولما رأوا تصميمه على مقاتلتهم لم تسعهم الا الموافقة ، وكان ذلك من المواقف الحاسمة في تاريخ الاسلام .

ذلك صلاح الدين والدنيا ورفع مستوَى الحياة الاجتماعية المنحط عند المسلمين، ومقاومة تيار المبادئ الهدامة الذي بدأ يكتسح الأوطان الاسلامية اكتساحاً؟..

فهل تخشَى هذه الحكومات من امتناع الأغنياء عن دفع هذه (الضريبة الجديدة) وهي واجب ديني لا فرق بينه وبين الصلاة والصيام، بل إنه مقدم على الصيام وليس فيه أدنَى رخصة كما في الصيام؟ أم أنها تخشَى أن تنسب إلى التعصب الديني، تلك الخرافة التي لم يبق ينصت لها غير المسلمين؟ أم أنه الاهمال فقط الذي لابد أن تكون له عاقبة سوء.

أنا إنما أتكلم عن الحكومات الاسلامية المالكة أمر نفسها التي تقدر أن تتخذ خطة عملية في تنظيم هذا المشروع وتنفيذه وهي لا تفعل، وأما الحكومات المضروب على أيديها فما أحرى رؤساءها أن يستعملوا ما لديهم من نفوذ شخصي لتدبير هذا المشروع بكيفية شعبية، فتؤسس جمعية من رجال العلم والدين والإخلاص ويوضع قانون للعمل تجبى بمقتضاه زكوات المسلمين حقاً، المهتمين بأمر إخوانهم الفقراء، ومستقبل بلادهم وبلاد الإسلام على العموم ثم تصرف في المشاريع الاحسانية والاسعافات الصحية وغير ذلك من الأبواب التي تلافي ما يلقاه الفقير المسلم من غوائل المرض والجوع والجهل الخ. ولا يقبل منها أقل من هذا التدبير الموقت اليوم حتَّى يعود الأمر إلى نصابه وتنظم مصلحة الزكاة تنظيما شرعياً يتلاءم وما ينص عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

ولكن الذي ينبغي الحذر منه هو التلاعب بمستفاد الزكاة بصرفه في غير مصارفها المشروعة، كمصالح الدولة وعطاءات غير المستحقين، أو تسليط المباشرين عليها فيستغلونها لأنفسهم، وتكون عوائدهم منها أكثر من عوائد الفقراء كما هو الواقع في الأوقاف بالنسبة للمشرفين عليها، وقد عُلم أن الله عز وجل لم يجعل (للعاملين عليها) غير جزء من ثمانية أجزاء، فإذا لم يتبع هذا التشريع فإن حكمة الزكاة تبطل، وما يتوقى بها من خطر انتشار المبادىء الهدامة لا يتحقق، ونكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا.

الإسعاف في نظر الإسلام

ليس من شك في أن الأديان كلها جاءت بالعطف والمودة والرحمة ، وهذه الصفات هي النبع الإنساني الثر الذي يفيض بعناصر البر والخير والاسعاف ...ونحن هنا إنما ننظر إليها بنظر الاسلام الذي هو ديننا ، وهو ختام الأوضاع الإلهية التي ناط الله بها سعادة البشر وهناءتهم .

ولعل مما لا خفاء به أن السمة الخلقية الخاصة التي يتسم بها الإسلام هي أنه دين الرحمة ، ومن أسماء نبينا محمد ﷺ اسم نبي الرحمة ، فقد قال الله عز وجل فيه : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وافتتاح القرآن وسائر سوره بالبسملة له دلالته الخاصة على هذا المعنَى فانها أربع كلمات اثنتان منها هما الرحمن الرحيم . وما خص هذان الاسمان من بين أسمائه تعالى التي تبلغ تسعة وتسعين اسماً في فاتحة القرآن وفي أول كل سورة إلا للاشعار بأن الرحمة هي أولى الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن .

وقد تكرر وصفه تعالى بالرحمة في غير ما آية من الذكر الحكيم ، وأخبرت إحدى الآي الكريمة ان رحمته تعالى تسع كل شيء ، فدل هذا التعبير العام على عظمة هذه الصفة وما لها من عموم التعلق بجميع الكائنات ، وثم آية أخرى يقول العلماء انهاً ارجى آية في القرآن وهي قوله تعالى : «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم» وفعلا فانها قد خاطبت المطيع والعاصي بدون استثناء ، وفتحت أبواب الرجاء للجميع ، في مغفرة جميع الذنوب ، رحمة منه تعالى لعباده الضعفاء ، وأكدت ذلك بجميع أدوات التأكيد حين ختمت بهذين الوصفين البليغين : الغفور الرحيم .

وقد جاء في السنة النبوية ما يطابق الآية الكريمة «ورحمتي وسعت كل شيء» وذلك هو قوله ﷺ : «ان الله تعالى لما خلق الخلق ، كتب على نفسه : ان رحمتي تغلب غضبي» وفي حديث آخر : «ان الله تعالى جعل الرحمة في مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم

الخلق حتّى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» وهذا حكم على طبيعة هذه الدعوة الإسلامية بأنها للرحمة أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، وهو بالتالي دعاء إلى التخلق بها والنزول عند مقتضياتها . فما أكبر الإسلام من شأنها هذا الاكبار إلا لذلك ، وقد جاء في الحديث : «من لاَ يرحَم لا يُرحم» وفيه أيضاً : «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقد رأيت كيف عم القرآن بالرحمة كل شيء ، فهي تشمل الإنسان والحيوان ولا تخص أحداً من المخلوقات . ومن الأمثلة المضروبة على ذلك في السنة النبوية ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة تحلب ثديها ، تسقي إذا وجدت صبياً في السبي اخذته فألصقته ببطنها وارضعته ، فقال لنا النبي ﷺ «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ فقلنا : لا ، وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال لَلّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها.» وروَى ابن مسعود رضي الله عنه : «كنا مع النبي ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة ، أي أنثى طائر أحمر ، معها فرخان ، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش يعني ترفرف ، أو تعرش يعني ترتفع فوقهم ، فقال النبي ﷺ من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها» .

وروي عنه ﷺ أنه قال : «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بيراً ، فنزل فيها ، فشرب ثم خرج فإذا كلب يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البير فملأ خفه ثم أمسك بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا يارسول الله ، وان لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : «في كل ذات كبد رطبة أجر .» وروي أيضاً أنه قال : «دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» .

فهذه كلها صور تعطي مثالاً عن الرحمة التي جاء بها الإسلام ودعا إليه أهله ، ليتخذوها شعاراً لهم ودستوراً خلقياً ينظم علاقاتهم الفردية والجماعية وسلوكهم في الحياة ازاء الناس وجميع المخلوقات . بل لقد حض الإسلام على الرحمة حتّى عند الاضطرار إلى ارتكاب ما ينافيها كالذبح وحالة الحرب ، فقد جاء في الحديث : «ان الله كتب الاحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته» .

وأوصى أبو بكر الصديق جيشاً أرسله إلى الشام فقال : «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلو ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع (يعني الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ...» وهذه الوصية التي جعلت للحرب أسمى قانون إنساني عرفته البشرية إلى الآن ، هي ولا شك مما استمده الخليفة الأول من تعاليم الرسول ﷺ وسيرته في حروبه ، وبمقتضاها حكم المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون على حرب الفتوح الإسلامية فقال كلمته المشهورة «لم يعرف العالم فاتحاً أرحم ولا أعدل من العرب» .

ومما يتعلق بهذا الموضوع ان الاسلام حرم القتل بالنار، وقال نبيه عليه السلام في هذا الصدد : «لا يعذب بالنار إلا خالقها» وفي رواية «لا تعذبوا بعذاب الله». فامتنع في هذا الدين الرحيم الحرب بالوسائل الجهنمية من مخترعات العصر الحديث التي يهدد بها زاعموا التمدن من دول الطغيان، الانسانية جمعاء. ولا يقتصر النهي عن التحريق على جنس الانسان بل يشمل الحيوان أيضاً وهو ما يشعر به حديث ابن مسعود : «رأى النبي ﷺ قرية نمل قد احرقناها فقال من حرق هذه؟؟ قلنا نحن ، قال إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار».

وما دمنا قد تطرقنا للكلام على الحرب ، وهي ميدان واسع لأعمال الاسعاف ، فلنذكر ما سنه الاسلام من ذلك في هذا الميدان وأهمه العناية بالجرحَى وكفالة ابناء الشهداء وما إلى ذلك مما يخفف من ويلات الحرب ويمسح دموع المصابين بشرورها . وقد علم من سنته ﷺ أنه كان ينهى عن الاجهاز على الجريح من العدو ، وما ذلك إلا لتوقع معالجته والعناية به حتَّى يبرأ ، لأن الحرب في الاسلام ليست عملية عدوانية أو انتقامية ، وإنما هي دفاع ألجأت إليه الضرورة ، ومن القواعد المقررة في الأصول أن الضرورة تقدر بقدرها ، فإذا سقط المحارب جريحاً فقد أمنت غوائله في ميدان الحرب ، فلا داعي للاجهاز عليه بعد ذلك . أما كون حرب الاسلام للدفاع لا للهجوم فيدل عليه قوله تعالى : «اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله » وقوله عز وجل : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، ان الله يحب المقسطين . إنما

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم».

ولما كانت النساء أرق عاطفة وأرفق يداً في معالجة المرضَى فقد أسند اليهن الرسول ﷺ أمر العناية بالجرحَى وكان يستصحبهن في غزواته ليقمن بأعمال الاسعاف التي تقتضيها الحرب. ومن ذلك ما روي عن الرُّبيِّع بنت معوذ قالت: «كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلَى والجرحَى إلى المدينة» وباشرت زوجات النبي ﷺ أنفسهن هذا العمل وبنته فاطمة عليها السلام..ففي حديث أنس عن غزوة أحد: «ولقد رأيت عائشة وأم سليم وأنهما لمشمرتان، أرى خَدَمَ سُوقهما، يعني خلاخلهما، تنقلان القِرَب على متونهما، تفرغان الماء في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواههم» وعن أبي حازم انه سمع سهل بن سعيد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ في أحد فقال: «اما والله اني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء وبما دووي، قال كانت فاطمة تغسله وعلي بن أبي طالب يكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثره أخذت قطعة من حصير فأحرقتها والصقتها بالجرح فاستمسك الدم» وروي عن أم زياد الأشجعية أنها خرجت مع النبي ﷺ في غزوة خيبر سادسة ست نسوة، قالت: «ومعنا دواء نداوي به الجرحَى ونناول السهام ونسقي السويق» وعن أم سنان الأسلمية قالت: «لما أرآد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر جئته فقلت: «يارسول الله أخرج معك أخرز السقاء وأداوي المريض والجريح، ان كانت جراح، وأبصر الرحل،؟ فقال: أخرجي على بركة الله» ولما أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم الخندق قال النبي ﷺ اجعلوه في خيمة رُفيدة التي في المسجد حتَّى أعوده من قريب..وكانت رفيدة هذه امرأة تداوي الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان في ضيعة من المسلمين وكانت لها أخت تسمى كعيبة تساعدها على ذلك العمل النبيل.

أما القيام على أهل المجاهد وكفالة أبنائه فقد قال النبي ﷺ في ذلك: «من خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا» وقال: «من جهز غازيا في سبيل الله أو خلفه في أهله بخير كتب الله له مثل أجره، حتَّى إنه لا ينقص من أجر الغازي شيء.» وعن أبي سعيد الخدري: «بعث النبي ﷺ إلى بني لحيان: ليخرج من كل رجلين رجل ثم قال للقاعدين: أيكم خلف الخارج في أهله فله مثل أجره...ومعلوم ما كان

قسم عمر رضي الله عنه لأهل السابقة من المسلمين ممن شهد بدراً أو أحداً وغيرهما من المشاهد ، وتفضيلهم في العطاء على غيرهم ، ولقد قسم ذات مرة مُروطا بين نساء من نساء المدينة ،فبقي منها مرط جيد فقال له بعض من عنده : ياأمير المؤمنين ، أعط هذا بنت رسول الله التي عندك ، يريد أم كلثوم بنت علي ، فقال عمر : «أم سليط أحق به ، فإنها كانت تحمل لنا القرَب يوم أحد» وهذا اثبات لحقوق قدماء المحاربين وتفضيل لهم حتّى على ذوي الفضل الذي لا ينكر.

وغير خاف على أحد أن مرجع الاسعاف كله إلى المال ، فإن المال كما يقولون هو قوام الأعمال ، ومهما توفر لدينا من الشعور الانساني العميق والرغبة في الإسعاف وحب الخير ، فإنه لا ينفعنا ذلك شيئاً عن البذل والانفاق والبحث عن وسائل إيجاد المال الكافي للقيام بالمشروعات الضرورية للإسعاف والعمل الانساني النبيل ، وموقف الاسلام من هذه المشكلة معروف ، فإنه فرض ضريبة للإسعاف على المال إذا بلغ قدراً معيناً ولم يستثن منها أحداً ، إلا الذي لا يجد ذلك القدر المعين من المال، وهو ليس ببالغ الكثرة حتّى لا يجده إلا الممولون الكبار، بل هو مبلغ عشرين ديناراً فقط (20) ، والواجب فيه ربع العشر ، وظاهر من هذا أنه يريدها ضريبة اجتماعية يشارك فيها جميع طبقات الأمة الا النادر الذي لا حكم له . وهذه الضريبة هي الزكاة التي هي إحدى القواعد الخمس المبني عليها الإسلام ، ولا هوادة في دفعها لأنها واجبة كالصلاة والصيام . ومن ثم جاء في الآية الكريمة : «وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» ومصارفها التي لا تدفع الا فيها ثمانية وقع النص عليها في القرآن الكريم ، وهي هذه الأصناف من الناس ووجوه البر : (1) الفقراء الذين يتكففون الناس، (2) المساكين وهم الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، (3) العاملون عليها أي الموظفون في مصلحة الزكاة ، (4) المؤلفة قلوبهم أي الذين يراد استنقاذهم من الكفر والإلحاد ، (5) فك الرقاب أي تحرير الأرقاء ويدخل فيه تحرير الشعوب المستعمرة اليوم من باب أولى وأحرى ، (6) المدينون يعطون منها ما يؤدون به ديونهم ، (7) في سبيل الله ، وهو باب واسع يستوعب جميع وجوه البر والإحسان ، (8) ابن السبيل أي الغريب المحتاج المنقطع ، وتجبي الدولة هذه الضريبة وتصرفها في الوجوه المذكورة ، ولا تصرف منها في باب من أبواب الميزانية العامة إلا بعد كفاية المستحقين لها .

وإلى جانب هذه الضريبة الاجتماعية الواجبة رغب الإسلام في البذل والعطاء

والتبرع للمشاريع الخيرية بما لا مزيد عليه، فتارة بإثارة النخوة في نفوس الكرام وبعث أريحتهم للجود والانفاق، وتارة بالوعود الكريمة التي تتضمن مضاعفة الثواب والجزاء وتارة بالمفاضلة بين الأعمال الصالحة واعطاء المقام الأول لبذل المال في سبيل الله. وهكذا نرى في القرآن الكريم آيات تفوت الاحصاء، كلها حض على هذا العمل وتفنن في الدعاء إليه وإلى القارىء الكريم منه هذه الصفحة المشرقة التي تضمنت أكثر من عشر آيات متتابعة، فيها من ألوان الاغراء والحث على النفقة في سبيل الله واعانة الفقراء ما يؤثر في أشد النفوس كزازة ويستخرج به من أبخل الناس، قال تعالى في سورة البقرة:

«مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً، لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطلّ، والله بما تعملون بصير، أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه، واعلموا أن الله غني حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم، يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولوا الألباب، وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه، وما للظالمين من أنصار، إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ونكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير. ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا

من خير يوفَّ إليكم ، وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .» صدق الله العظيم .

ويضيق المقام عن تتبع هذه الآيات الكريمة وابداء ما فيها من ضروب البلاغة وطرق التأثير ، ولكننا لا ننسَى أن ننبه على ما يصحب الدعوة فيها إلى الإنفاق من ارشاد إلى الأدب اللازم في ذلك ، والذي تكون مخالفته سبباً في احباط العمل وإضاعة ثوابه الجزيل . وأهم ذلك عدم المن بالعطاء وكونه من طيب الكسب . وما زالت الآيات الكريمة ترتقي بالمؤمن في درجات البر والاحسان حتَّى وصلت به إلى أعلى الدرجات وهي درجة الذين ينفقون في كل وقت وحين ، ولا يملون من الانفاق ، ليلا ونهاراً سراً وعلانية ، فطوبَى لهؤلاء ، ما أعظم قدرهم ..

وجاء في آية أخرى أن البر ليس هو الصلاة والصوم والأعمال البدنية الأخرى ، ولكنه هو مع هذه الأعمال ، ايتاء المال على حبه لذوي الحاجات . والآية الكريمة التي تقول : «لن تنالوا البر حتَّى تنفقوا مما تحبون» تجعل حقيقة البر لا تنال الا بانفاق أطيب الكسب وأحب الممتلكات إلى الانسان ، وقد أخذ الصحابة رضي الله عنهم بذلك ، فكانوا ينفقون أحسن أملاكهم وأكثرها غلة على وجوه البر والإحسان ، كما فعل عمر وأبو طلحة وغيرهما . بل ان عبد الله بن عمر كان يتصدق على الفقراء باللوز والسكر أي ما نسميه عندنا في المغرب بالعقدة ، ويقول اني أحبهما والله تعالى يقول : «لن تنالوا البر حتَّى تنفقوا مما تحبون» .

وتتضافر السنة النبوية مع القرآن الكريم ، فتفيض فيها الأحاديث بمدح الجود والسخاء وانفاق المال في مشاريع البر والاحسان ، حتَّى انها لا تعتبر شيئاً من العمل يصح أن يغبط الناس بعضهم بعضاً عليه ، الا نشر العلم وبذل المال . وهاك ما قاله الرسول ﷺ في هذا الصدد : «لا حسد الا في اثنتين ، رجل أتاه الله علماً فهو يعلمه الناس ، ورجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق » وتأمل عبارة سلطه على هلكته ، فهي تشير الى أنه لا يبقي ولا يذر في هذا الباب ، وذلك هو ما أوجب مدحه بحيث أصبح موضع غبطة شرعية للناس .

ولا يتسع المجال لايراد الأحاديث التي جاءت في هذا الموضوع ، لأنها كثيرة

جداً لا يأتي عليها العد ، ومع ذلك فاننا نورد منها تفاريق مما يعطي صورة عن العدالة الإجتماعية التي ضمنها الإسلام لأتباعه ولمن عاش تحت ظل حكمه الوريف .

يقول الرسول ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» ونستطيع أن نعرف هذه الأصناف التي ذكرها النبي ﷺ ولم يبينها الصحابي الجليل من طرفي الحديث الذي اشتمل أوله على مطالبة من له مركوب فاضل أن يساعد به من لا مركوب له وآخره على مطالبة من له طعام فاضل أن يطعمه من لا يجد طعاماً ، فبين الطرفين مجال يستوعب جميع أنواع التكافل ويتيح من فرص العيش الرغيد ما يحقق تكافؤ طبقات المجتمع عامة . ويؤيد هذا الحديث قوله تعالى «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» أي الفضل مما يجدون.

ويقول النبي ﷺ في بعض حديثه الذي بين به حقوق الجار : «ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع» وجاءه رجل فقال : يارسول الله اكسني ، فقال له : «أما لك جار له فضل ثوبين؟ قال بلى ، قال : فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة» ولا شك أنه إذا اهتم كل واحد بجاره هذا الإهتمام ، لم يبق في المجتمع الإسلامي من يشتكي الخصاصة والفقر ، ويزداد الاهتمام بضمان أسباب الحياة الكريمة للفرد في المجتمع الإسلامي إلى أن يقول النبي ﷺ : «فراش لك وفراش لأهلك وفراش لضيفك ، والرابع للشيطان» فمن لم يفرش لهؤلاء البؤساء المشردين الذين يمتهدون الأرض ويلتحفون السماء وعنده فضل فراش ، فهو آثم في شريعة الإسلام ، يؤوي الشياطين كل ليلة إلى بيته ويطرد الملائكة .

وهذه التعاليم الانسانية العالية ، قد أخذ بها المسلمون في الصدر الأول ، فارتفعت معنوياتهم ، وعاشوا عيشة مثالية لم يسمع بها فيما مضى ولا فيما غبر . وناهيك بما كان يقع بين المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة ، بعد أن آخى النبي ﷺ بينهم ، من المواساة والايثار ، حتّى روي أن سعد بن الربيع الأنصاري قال لعبد الرحمان بن عوف ، وكان النبي ﷺ آخى بينهما : «اني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالي ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما لك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها» فقال له عبد الرحمن : «بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلني على السوق» فذهب وباع واشترى فما لبث أن استفضل وتزوج .

والغاية في هذا الباب من الإيثار والتضحية ما روي أن الحرث بن هشام وابن

أخيه عكرمة بن أبي جهل وعياش ابن أبي ربيعة جرحوا يوم اليرموك ، وهي غزوة كانت بالشام صدر أيام عمر بن الخطاب ، فلما أثبتوا دعي للحرث بن هشام بماء ليشربه فنظر إليه عكرمة فقال ادفعه إلى عكرمة ، فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياش ، فقال إدفعه إلى عياش ، فما وصل إلى عياش حتّى مات ، ولا وصل إلى واحد منهم حتى مات ، ولم يعدم في المجتمع الاسلامي مدى القرون المتتابعة من كانت تتمثل فيهم هذه الروح العالية من الجماعات والأفراد ، وإنما ذكرنا أهل الصدر الأول لأنهم محل القدوة من جميع المسلمين ، مع أن ذكر غيرهم يطول جداً . والمسلمون اليوم مدعوون إلى إقامة صرح الضمان الإجتماعي في بلادهم على أساس ما أتى به القرآن وبينته السنة ، ولا يجوز لهم بحال أن يتخلفوا عن القافلة الإنسانية التي حققت تقدماً عظيما في هذا الصدد ، وهم كانوا أحق بهذه المثل العليا وأهلها ، فمن العار أن يبقوا في المؤخرة ، ودينهم الحنيف يجعلهم في مكان القيادة من المجموعة البشرية التي مهما اجتهدت فلن تأتي بأهدى مما كان عليه سلفهم الصالح رضوان الله عليهم .

نسأله تعالى التوفيق والهداية إلى أقوم طريق .



هَلْ ينبغي للمرأة المسلمة أن تحمل اسمَ زوجها بعد الزواج

تحية أخوية خالصة

وبعد ،

كثيراً ما نرى بعض السيدات المسلمات بالمغرب يودعن أسماءهن العائلية بمجرد زواجهن حاملات بعد ذلك أسماء أزواجهن العائلية كما هو الشأن عند الغربيين سواء بسواء.

وقد نوقشت هذه القضية – كما هو معلوم – مرات متعددة في جل البلاد الاسلامية ، وكان من نتيجة هذه المناقشات أن ظهرت عدة نظريات وحلول لهذه البدعة .

وكم أرجو أن تبسط هذه الظاهرة ويتناولها كتاب (دعوة الحق) الفقهاء ، وخاصة كم أرجو أن يعرض هذا الموضوع على أستاذنا العلامة السيد عبد الله كنون ، لما نعهده فيه من حسن تفهم .

هذا ، وفي الانتظار تفضلوا بقبول فائق عبارات التحية والسلام.

طنجة : محمد المنتصر الحداوي

ليس من شك في أننا معشر المغاربة منذ الاستقلال نخوض غماراً لانقلاب خطير سيكون له أعظم الأثر على كياننا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وإذا لم نستطع السيطرة على عوامل هذا الانقلاب وتوجيهه التوجيه الصالح ، فسيقودنا لا محالة إلى نهاية غير محمودة العقبَى ، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في الانسياق مع مختلف التيارات الأجنبية التي تهز كيان الأمة هزا عنيفاً كل يوم تطلع فيه الشمس .

ولسنا الآن بصدد الخوض في هذا الموضوع ، المتعدد الجوانب ، المختلف المظاهر ؛ وإنما نتناول منه هذه الجزئية الصغيرة التي أشار إليها السيد منتصر الحداوي

في رسالته المنشورة أعلاه. والقصة طريفة حقاً، وإن يكن الكاتب قال: انها نوقشت مراراً في جل البلاد الاسلامية، فأنا لا أذكر اني أطلعت على شيء مما راج فيها، ولا علمت برأي لأحد القادة حولها، ومهما يكن الأمر فإني أحكم على هذه العادة بالزيف والتزوير، ولا أرتضيها لمن يحترم نفسه وأسرته، ويجب أن يكون لأمته كيان حضاري متميز تعرف به من بين غيرها من الأمم.

أما من أين أستمد حكمي هذا، فمن ثلاثة أمور:

أولها ــ ما تشير إليه الرسالة من أن الباعث على هذه البدعة هو التقليد الأعمى للعادات الغربية، والتقليد كله مذموم لا من وجهة النظر الدينية فحسب، ولكن من وجهة النظر الإجتماعية أيضاً، وهي التي نركز عليها الكلام في هذه النقطة. فمما لا خفاء به أن التقليد يدل على عدم الأصالة، وأن المقلد لا يفتأ يعلن بفعله فضلاً عن قوله، أنه نسخة من غيره، وانه تابع لا متبوع، ومصنوع لا مطبوع، وبقطع النظر عما يكون في المقلد (بالفتح) من عيب، وفي النسخة من تحريف، فإن مجرد الانسياق في حبل الغير كاف وحده للغض من شأن المقلد والتنقيص من قيمته. فالفرد رجلاً كان أو امرأة، إذا انسلخ من شعارات قومه، ونبذ تقاليد أمته مستبدلاً بها شعارات وتقاليد أخرى أجنبية عنه، إنما يبرهن على أنه إمعة لا رأي له، وانه بالتالي ينتمي إلى شعب بدائي ليس له عِرْقٌ في الحضارة، ولولا ذلك لما تهافت على مواضعات الأجانب وآدابهم الاجتماعية تهافت الذباب على الشراب. ومن ثَمّ فان المرأة التي تتخلّى عن اسمها العائلي بمجرد الزواج وتحمل اسم زوجها تقليداً للغربيين، إما أن تكون وضيعة فهي تتستر من وراء زوجها حتّى لا تظهر وضاعتها، وإما أن تكون غير راضية عن تقاليد قومها فهي تحتقر أمتها وتريد أن تكون هي وقومها ذيلاً مهيناً للأجنبي الذي قلدته. وفي أحسن الاحتمالات يكون فعلها ذلك بغير وعي ولا تفكير، وإنما هو اندفاع في التقليد، وتمسك بكل جديد، وهذه هي الإمعية التي لا يرضَى بها شخص يحترم نفسه.

والغالب أن الزوج هو الحامل لها على ذلك، فعليه اذن أكبر قسط من المسؤولية في هذا التصرف الأناني الذميم.

وأحب أن ألمح إلى أن هذا التقليد السهل الرخيص قديم في الناس، وأنه في المسلمين شيوخهم وشبانهم عميق الجذور، فالشيوخ لا يحلو لهم تقليد السلف الصالح الا في المظاهر التافهة والطاعات اللسانية الخفيفة ذات الثواب الجزيل

والتعب القليل ، وأما الطاعات العملية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والعزوف عن المطامع ، فانها قد ضيعت من زمان لثقلها على النفوس ومجافاتها للسلامة . والشبان إنما يقلدون الغربيين بحجة التطور والتقدم في ما كان من قبيل ما نحن بصدده من انتحال المرأة لاسم زوجها ، ومثل ضم الرجل اسم أبيه إلى اسمه وربما اسم أمه أيضاً ، وحذف كلمة ابن التي يثبتها العرب تحقيقاً لنسبهم ومحافظة عليه ، فيختلط من جراء ذلك الاسم البسيط (محمد ابن العربي) مثلاً بالاسم المركب (محمد العربي) و (محمد بن الحسن» بمحمد الحسن) ، ويقع الذهن في الارتباك وتخالف أصول العرب ، ولكنه ما دام تقليداً غربياً سهلاً فهو مقبول لأنه دليل على التقدم الرخيص .

قد تكون الأساليب الكلامية في اللغات الأجنبية هي التي تمنع من ذكر كلمة ابن بين اسم الوالد والولد ولكن من المحقق أنها كانت مستعملة في بعضها ، فهل يكون تكاثر الأولاد غير الشرعيين في المجتمعات الغربية هو الذي رجح حذفها؟.. وأيا ما كان باعث أصحابنا على هذا ، (التجديد التقليدي) فإن المقاييس العربية لغوية واجتماعية ، ما كانت لتقبله قط ، وقد واجه العرب شخصية من أعظم شخصياتهم في العصر الأموي بالحقيقة المرة عن أصله ، ولم يشفع له نبوغه في الحكم والادارة أن لا يدعوه زياد ابن أبيه ..

ومن أمثلة التقليد التقدمي عند الشباب قص الأظفار طويلة ، وتوفير اللحية على هذا الشكل الدقيق الذي شاع في الأيام الأخيرة ، ولو أتيت لهؤلاء الشباب بكل ما روي في الآداب الاسلامية عن خصال الفطرة ومنها قص الأظفار ، وما ورد عن النبي الكريم في اللحية ، لما قابلوك الا بالسخرية والاستهزاء ، ولكن لما أصبح الأمر تقليداً غربياً سهلاً يدل على (روح التطور) المتمكنة في أصحابه ، سارع إليه هؤلاء الشباب بكل طواعية واختيار...

أما تقليد الغرب في عمله وصناعته ومغامراته في بحوثه وكشوفه وتضحيته في سبيل حماية الحضارة المسيحية ونشرها في الآفاق ، فهذا أمر صعب على شبابنا المتحلل المتفسخ ، إلا من رحم ربك وقليل ماهم...

ولعل ما يوحي إلى النساء اللائي اتبعن التقليد المتحدث عنه بترجيحه على عادات قومهن ، انه يدل على عاطفة الحب بين الرجل وامرأته ، وان زواجهنّ مبني على حسن التفاهم ، لا كما كان زواج آبائهن وأجدادهن ارتباطاً مادياً وزواجاً

مصلحياً فحسب . ولست أدري إلى أي قاعدة ترجع هذه الحركة النسوية التي تتزعمها المرأة الجديدة؟ فهي بينما تزعم أن الرجال اضطهدوا المرأة وتجاهلوا شخصيتها ، فالواجب عليها أن تثور طلباً لمساواة الجنسين في الحقوق ، إذا بها تذوب في الرجل وتلاشي كل ملامحها الشخصية حتَّى اسمها الخاص ، ولكن ما دام ذلك تقليداً غربياً سهلاً فهو مقبول لأنه دليل على التقدم الرخيص ...

وخلاصة القول أن هذه المشكلة ، مشكلة التقليد الأعمى في خطوطها العامة ، هي أساس الخلاف بيننا وبين هؤلاء المتزعمين للدعوة الى التحرير واللحاق بركب الحضارة الغربية . وما هذه الجزئية التي جرى الكلام فيها إلا مظهر صغير من مظاهرها الكبرى التي تتمثل في جميع ميادين النشاط الحيوي للأمة .

ثانيها ــ قضية زيد بن حارثة الذي كان النبي ﷺ تبناه ، فلم يكن يعرف الا بزيد بن محمد حتَّى نزلت آية «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله» فنسب من حينئذ إلى أبيه . وظاهر أنه إذا امتنع هذا في حق سيد المرسلين وخاتم النبيين ، فلأن يمتنع في حق غيره بالأولى والأحرى ...على أن النهي عن ذلك ورد صريحاً في الأحاديث النبوية الصحيحة كحديث البخاري : «لا ترغبوا عن آبائكم ، فمن رغب عن أبيه فهو كفر» يعني كفر حق أبيه لا كفر العقيدة ، وحديث الصحيحين معا : «من ادعى إلى غير أبيه وانتمى الى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً».

والأحاديث في ذلك كثيرة ، ويكفي أهل الإيمان ما ذكرناه منها .

ثالثها ــ ان المرأة بصدد الفراق إما بالموت أو الطلاق ثم الزواج بعد ذلك بغير زوجها الأول ، فهي مضطرة إلى نبذ اسم الزوج السابق واتخاذ اسم الزوج الجديد ، وهو عمل ان دل على شيء فعلى الزيف والتذبذب ، ولو احتفظت باسمها العائلي أولاً لما تعرضت لشيء من هذه الأحوال المضطربة .

وهنا يظهر التقليد الإسلامي في الاحتفاظ للمرأة بشخصيتها كاملة وان تزوجت ، وإن كان زواجها مبنياً على ما شاءت من العواطف ، لأن الإسلام لم ينهها عن هذا الزواج ، بل حض على المودة والتعاطف بين الزوجين وأمر حتَّى بعد الفراق بعدم نسيان الفضل والمعاملة الحسنة ، إلا أنه لم يدع الزوجة قط إلى التنزل عن شخصيتها والمسامحة في حقوقها ، وذلك هو الاحترام الصحيح للمرأة وحفظ كرامتها التي طالما اهدرت على مذبح الأغراض والشهوات ، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» .

المجنّدون يتساءلون

جاءني وهو مرتبك ، تحت ستار الليل ، حين كنت أتأهب للنوم ، وقال انه يريد أن يسألني عن مسائل مهمة تتعلق بالسياسة الإسلامية وأحوال المسلمين في العصر الحاضر ، وكنت أعرفه ، وعلى الأصح أعرف والده وأسرته . فوالده كان ينتمي للعلم ، وكان في وقت ما ينتسب إلى احدى هذه الطوائف الصوفية ، ثم ثار عليها وأعلن انضمامه للسلفية بكل قواه ، وأسرته معروفة بالمروءة والخيارة والتمسك بأهداب الدين ، وهي من مُهَاجِرَة الجزائريين الأولين الذين أووا إلى هذه الديار عند اغتصاب فرنسا للقطر الجزائري الشقيق . وأما هو فلم يكن من سيرة أسرته ببعيد ، غير أنه لم يدرس كما ينبغي له ، إذ كان يحترف لمساعدة والده الذي كان ضعيف الحال، على أنه لم يزل بعد شاباً في مقتبل العمر .

وشعرت أن أمر المذاكرة معه في هذه الأمور التي أشار إليها سيطول فقلت له : وهل في هذه الساعة تريد الجواب؟ فقال : اني على أهبة سفر طويل ، وأريد التعجيل ما أمكن . فسألته عما إذا كان الصباح الباكر من الغد وقتاً غير متأخر فأجاب : لا . قلت : إذاً فإلى اللقاء صباح الغد ان شاء الله . وجاء في الموعد المحدد ، وكان في هذه المرة مطمئن النفس ، فأول ما خاطبني به أن قال : انني تجندت في جيش التحرير الجزائري ، فقلت : هنيئاً لك ، وهل استأذنت والدتك؟ فقال : نعم ، وقد أذنت لي وشجعتني وأوصتني بالصبر والصلاة ، وزودتني بالدعاء الصالح . قلت : يالها من امرأة مؤمنة ، ولئن تمسكت بوصيتها لتكونن مجاهداً حقاً ، قال : عن هذا جئت أسألك ، فمن هو المجاهد في سبيل الله؟ قلت : ان النبي ﷺ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . قال : ها نحن قد اقتحمنا الموضوع ، فهل لك أن تبين لي المراد بكلمة الله ؟ قلت : الأمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، ان كلمة الله هي دينه وشرعه ، وما أرسل به نبيه محمداً ﷺ من الهدى والنور ، قال : وهل يدخل في ذلك القتال من أجل تحرير

الجزائر؟ قلت : بالطبع يدخل ، فإن تحرير البلاد الإسلامية من سيطرة الأجنبي وفك رقاب المسلمين من رق الاستعمار هو من أول ما تشمله أغراض الجهاد المقدس ، ومما تقرر في شرع الإسلام أن الجهاد يصير فرض عين على كل مسلم حينما يفجأ العدو أرض المسلمين ، فكيف به وقد توطنها وصار هو الحاكم المطلق فيها ، وفرض لغته وشريعته وأكاد أقول دينه على من بها من المسلمين؟ وأن ما يسومهم من الذل والهوان ، ويذيقهم من المرارة والحرمان لما يثير النخوة في أشد الناس جبناً وأضعفهم حمية ، فما بالك بالمسلم الذي يأبى عليه دينه الخضوع إلا لله ، ولا يقبل منه عذراً في المقاومة ولو كانت قوة العدو ضعف قوته؟.

قال : إنني أفهم ما تقول ، ولكني أصارحك اننا ثلاثة من الشبان قد اشتبه علينا الأمر ، فان قوماً قد جاهدوا مثل ما تجاهد الجزائر اليوم حتَّى إذا تمكنوا من أنفسهم وألقيت اليهم مقاليد الأمور ، طغوا وتجبروا وصار بعضهم يكيد لبعض ، وادهى من ذلك وأمر ، انهم بدلوا الشريعة الاسلامية بالقوانين الفرنسية ، وأباحوا المحرمات ، فالخمر تعاقر جهاراً ولا من نكير ، والفواحش لم يبق منها الا ما ظهر ، وحفلات الرقص الآثم يترأسها السادة والكبراء ، والقمار الممنوع بالكتاب العزيز صار لا مندوحة عنه لما يدره على المساهمين في نواديه من الأرباح الطائلة ، بل إن قوماً من هؤلاء المجاهدين تجرأوا حتَّى على قواعد الاسلام الأساسية فأنكروا صوم شهر رمضان ، وألزموا من إلى نظرهم بالفطر فيه فنحن ازاء انتشار هذه الموبقات في عهد الذين أنقدوا بلاد الإسلام من سيطرة الأجنبي نتساءل هل القتال مع الذين لا ينتظر منهم غير هذا ، يكون جهادا في سبيل الله.

قلت : إنك مُلقَّن فيما يظهر. قال : والله إن نيتي لحسنة ، وكذلك رفيقاي ، ولعلك لا تعلم أن واحداً منهما فُرق بينه وبين زوجه لأنه لم يجارها في هواها ، وقد ادعت عليه أنه يمنعها من ارتياد دور السينما ، فأجاب بأنه لا يملك ما يستطيع أن يرضي به رغبتها اليومية في ذلك فضلاً عن تضييعها لمصالح بيتها ، فألزم بأن يتخذ خادماً لمصالح البيت وأن يخلي بين زوجه وبين (تدبير) نفقات هوايتها المحببة كما طلبت ، أو الفراق ، فكان الفراق ، وهو الآن يريد أن يلاقي الموت راضياً مرضياً ، فمن هنا جاء تساؤله وتثبته أو تساؤلنا وتثبتنا جميعاً. وفوق ذلك فإنه سأل أحد المشايخ ، فقال له : ان هؤلاء كفار يجب قتالهم لا القتال معهم ، وسأل أحد (القادة) فقال له ان هذا الجيل جيل التضحية ولابد من هذه الزلات لتثبيت الخطى واستقامة السير...

فقلت : لا حول ولا قوة الا بالله ، وأما أنت وصاحباك فتكفيكم نياتكم الحسنة ، وقد ورد أن الناس يبعثون على نياتهم ، فقال : ليس هذا بجواب عما نبحث عنه ، وان كنا نؤكد لك أننا سوف لا نرجع عما عزمنا عليه بحال .

قلت : بل انه جواب ، وأنتم تريدون الحكم على شيء لم يقع بعد ، وتدينون أناساً برآء بإثم غيرهم ، مع أنهم ما زالوا يخوضون معركة جهاد اسلامي لا غبار عليه ، ويكفي دليلاً على ذلك تواطؤ الأمم النصرانية عليهم ، ففضلاً عن فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر التي ينازلونها كفاحا ، نرى أميركا تواصل العون بالمال والعتاد للمحاربين الاستعماريين ، ونرى دول الحلف الأطلسي بأجمعها تغض النظر عن استعمال القوات المعدة لتجهيز هذا الحلف في تلك الحرب الغاشمة ، بل ونرى دولة حيادية مثل سويسرا تطارد اللاجئين الجزائريين المقيمين في أرضها امعانا في الصليبية وزيادة في الكفر...ومع ذلك فمن الذي قال ان الاخوان الجزائريين لا يكونون مركز الثقل في السياسة الاسلامية المتبعة غداً في هذه الديار ، وانهم لا يضعون ميزان التعادل بين نظرية (المشايخ) ونظرية (القادة) فيحررون المجتمع الاسلامي من كثير من الأوهام والخرافات ، ولا سيما هذه الانطوائية التي يفرضها عليه المشايخ المتزمتون ، ويحولون بينه وبين الوقوع في هذا الالحاد والاباحية التي يجره إليها القادة المتفسخون؟...ان مما يؤكد لنا ذلك ما نعرفه عن رباط الأسرة الجزائرية المتين الذي مازالت السيطرة فيه للأب على أولاده ذكوراً وإناثاً، ومازالت المرأة فيه مهتمة بمصالح بيتها عازفة عن الارتماء في أحضان هذه الحضارة الزائفة التي تستنفذ وقت من استهوتهن من النساء في الزينة والتبرج ، والاختلاف إلى أماكن اللهو المشبوه ، مع أنها كانت أكثر تعرضا للوقوع في فخاخها وأسبق احتكاكا برسلها من أبناء عاصمة النور؟!. ومما يؤكد لنا ذلك أيضاً الضجة التي أقامها الزعماء الجزائريون منذ عهد قريب على الغاء القضاء الشرعي والحاقه بالقضاء الفرنسي ، أسوة بما فعلته بعض البلاد الاسلامية مع الأسف ، فلو لم تكن نية هؤلاء الزعماء صالحة لما أقاموا الدنيا وأقعدوها بالاحتجاج على هذا الاعتداء الشنيع على شريعة البلاد وأحكام الاسلام ، ولكان صادف ذلك هوى في نفوسهم وتمثلوا بالقول الشائع : لم آمر بها ولم تسؤني. هذا فضلاً عن جمعية العلماء التي طالما قومت المآد، ورفعت راية الإسلام والعروبة في تلك البلاد، ولم يكن تنافسها على الرياسة ولا على الانتماء كما هو الشأن عندنا بالنسبة لبعض العلماء، وهذا إلى رجوع بعض الساسة عن

أفكارهم المتطرفة وانضمامهم إلى السياسة التي كانت تدعو إليها الجمعية المذكورة وهي سياسة الاسلام والجامعة العربية .

وهنا كانت علامات البشر والسرور تلوح على وجه صاحبي ، وأيقنت أن ما كان فيه من الحيرة والتردد قد زال عنه حين قال لي : حقق الله هذه الآمال وكشف عن أمة محمد ﷺ هذه الغمة ، فقلت له : بلغ صاحبيك ما حدثتك به وثقوا تمام الثقة أن للبيت رباً يحميه ، وأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتَّى يأتي أمر الله .

*

الإمام العادل
أو لمحة من نظام الحكم في الإسلام

لئن كان موقظ الشرق الإسلامي السيد جمال الدين الأفغاني، رحمه الله، قال كلمته المشهورة : «لا يصلح الشرق الا مستبد عادل» فإنه من غير شك لم يقصد بالمستبد الحاكم المطلق الذي إنما يصدر في أعماله وأحكامه عن آرائه الخاصة وتجاربه الشخصية ، من غير اعتماد على شرع أو قانون ، ولا استعانة بنصيحة أو مشورة ، ومما يدل على ذلك أن الرجل حكيم ، يعرف أن الاستبداد بهذا المعنَى لا يجامع العدل ، وإنه مثل سائر المصلحين الذين قاموا في البلاد الإسلامية في العهد الأخير كان يقاوم الاستبداد وحكم الطغاة ، ويرى أن تأخر المسلمين وسيطرة المسيحيين عليهم ليس لهما من سبب الا الاستبداد الذي أخني على البلاد والعباد ، وقضَى على المواهب والكفايات وهل كان هو نفسه إلا أحد الضحايا لمستبد أثيم؟ فكيف يدعو لتدعيم أركان الاستبداد في الشرق ، وهو يعلم أنه العلة المزمنة التي قصمت ظهر الشرقيين؟، فالغالب أنه أخطأ التعبير ، وأنه انما قصد الى الحاكم الاسلامي الذي يتقيد بأوامر الشرع المطاع ويشاور أهل الحل والعقد فيما يأتي وما يذر ، وقد عبر عنه الحديث الشريف بالإمام العادل .

وإذن فنحن بازاء نوع من الحكم يرى السيد جمال الدين الأفغاني أنه الحكم الكفيل باصلاح الشرق ، وما عداه من أنواع الحكم الأخرى لا خير فيها لهذا الشرق العزيز ، فما هو هذا الحكم؟.

إنه الحكم الاسلامي المستمد من الكتاب والسنة اللذين هما دستوره الخالد وقانونه الأساسي غير المغيَى بغاية ، إلا غاية درء المفاسد وجلب المصالح ، والمساواة في الحقوق ، والواجبات ، وهيمنة الفضائل على المجتمع ، فلا حان ولا مأخور ولا ربا ولا قمار ولا تهتك باسم الفن ولا إباحة باسم الحرية. وإذا كان غيره من أنواع الحكم يعتبر الحكام سادة الأمة ، فهو يعتبرهم خدامها. أو كان يتجاوز عن رفاهية

الحاكم ، فهو أول من سن قانون من أين لك هذا؟ ومن أعظم ميزاته اهدار الفوارق الجنسية والعنصرية ، فالناس لديه سواء لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود الا بتقوى الله؛ وكفالة التعايش السلمي لجميع الأفراد والطوائف المنضوين تحت لوائه من غير نظر إلى نحلتهم ولا إلى نزعتهم ؛ ومن ثم فهو يدعو إلى السلم ، ولا يجنح إلى الحرب الا عند الضرورة القصوى ، وذلك في حالة الدفاع عن النفس ، أو حماية حقيقة الإيمان إذا أصبحت مهددة من دعاة الالحاد . والقائم بأعباء هذا الحكم هو الإمام العادل الذي تنتخبه الأمة عن طواعية واختيار من بين أهل العلم والدين والسياسة والشجاعة والمروءة والعفة ، مع التزام مشاورة أهل الرأي والتدبير كما قال تعالى للنبي ﷺ «وشاورهم في الأمر» ، وقال متحدثا عما هو الشأن بين المسلمين «وأمرهم شورى بينهم». وفعلا فقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في أمره كله ويقول له أحدهم ابتداء من غير مشورة في غزوة بدر : هذا منزل أنزله الله تعالى أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فيقول له النبي ﷺ بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فيقول الصحابي : فإن هذا ليس بمنزل ، وينزل حيث أراد الحباب بن المنذر. بل إنه أخذ برأي زوجه أم سلمة في غزوة الحديبية عندما أشارت عليه بالاحلال من الاحرام ليتبعه الناس ففعل وسميت لذلك مستشارة النبي ﷺ ورد بحديثها هذا ما يروى من قوله في النساء «شاوروهن وخالفوهن» وكان لكل من الخلفاء الراشدين (رض) عنهم مجلس شورى من كبار الصحابة ومن علمائهم ، ولو كانوا صغاراً كابن عباس وابن عمر وأضرابهما . واستشار عمر (رض) في كل أمر ، حتّى استشار في الطاعون فأخبر بحديث إذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وهو الأصل في إقامة الحجر الصحي عند موجبه .

والخلاصة أن نظام الحكم في الاسلام يعلو ولا يعلى عليه ، وليس هو بالديموقراطي ولا بالفاشي ولا بالشيوعي من باب أولى ، بل إنه جمع كل ما في هذه النظم من خير ، ونبذ كل ما فيها من شر أو شرور على التحقيق ، فمثلاً شوراه لا تقوم على أساس الأكثرية كما في النظام الديموقراطي الذي يزعمون أنه حكم الشعب تغريرا بعقول الناخبين من أجل الحصول على أصواتهم ، وإنما هي شورى أهل الحل والعقد ممن لهم خبرة بالشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وان كانوا أقلية ، لأن الناس واحد منهم كألف ، وألف كواحد ؛ فالأكثرية العديدة هنا معوضة بالأكثرية النوعية ، وهي خير منها بكثير ، وكيف يمكن أن يتساوى عالم كبير

مع جاهل كبير؟ وبما أن العلماء قلة ، والجهال كثرة ، فإن مجلس الشورى يمتلىء بالجهال ولا سيما وهم أقدر على شراء الأصوات من غيرهم ، وتكون النتيجة أن تصير الأمة محكومة بجهالها . وهو سر ما نراه في إفلاس هذا النظام في بعض البلاد العريقة فيه كفرنسا التي لم تعد تعرف الاستقرار في الحكم ، فكيف بالشرق الذي يعتبر هذا النظام دخيلاً عليه؟.

ومن الفوارق بين نظام الحكمين أن الرئيس الأعلى ملكاً أو غيره في النظام الديمقراطي مجرد من كل نفوذ وهو بالتالي غير مسؤول عن شيء من سياسة الدولة ، وهذا إن عبر عن شيء فإنما يعبر عن أثارة من أثارات الجاهلية وعهد عبادة الأصنام ، فبماذا يستحق هذا الرمز ما يعامل به من اجلال واحترام؟ وبماذا يأخذ ما يجعل له من مخصصات كبيرة في ميزانية الدولة؟ وفيم هذه التشريفات التي يصرف فيها وقت طويل وجهد طائل من أجل رمز لا حول له ولا طول ؟ الحقيقة أن هذه سخافة من سخافات هذا النظام التي يقصي منها العجب ، وكم فيه من سخافات غيرها وفي غيره من النظم الأخرى التي يطول بنا الكلام إذا تتبعنا ما يتوجه عليها من مآخذ .

أما نظام الحكم الاسلامي فقد أعطى للرئيس الأعلى ، وهو الامام العادل ، السلطة التامة بالشروط المتقدمة وجعله مسؤولاً عن أعماله ، والأمة من ورائه تؤيده إذا أصاب ، وتسدده إذا أخطأ فتعيد انتخابه (وبالتعبير الشرعي تجدد له البيعة) كلما حدث ما يستدعي ذلك كما حصل بالفعل مع النبي ﷺ في بيعة العقبة وبيعة الرضوان .

وأخيرا فلعل السيد جمال الدين الأفغاني كان يعني بمقالته الرد على الساسة الشرقيين الذين كانوا يرون أن اصلاح الشرق منوط باقتباس نظام الحكم الديمقراطي من الغرب ، فإن صح هذا فقد تحقق نظره في تركيا التي كانت أول من أحس بافلاس هذا النظام فنبذته نبذ النواة، وان لم تهتد إلى الحكم الإسلامي الذي هو خير ، ثم هو يتحقق اليوم في سوريا ومصر ولبنان التي عاينت من مفاسد هذا الحكم ما جعلها تعتبر الثائرين عليه رسل انقاذ وزعماء تحرير . على أن مصر بالخصوص قد بدأت تسير على نهج السياسة الإسلامية كالباكستان التي بنت

دستورها على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية الغراء[1]، وهنا في المغرب لابد أن تسير القافلة على هذا النهج السوي بعد الاستقلال، وسنكون في الطليعة إن شاء الله بفضل السياسة الإسلامية الرشيدة التي يتبعها جلالة الملك سيدي محمد بن يوسف نصره الله.

---

(1) كتب هذا قبل أن تطيح قوى الشر في الباكستان بالعناصر الخيرة التي كانت تعمل على المنهج الإسلامي.

الإقتصاد في نظر الدين

نظم الإسلام مطالب الحياة الانسانية بأجمعها ولم ينس المطلب الأساسي الذي تقوم عليه الحياة الإجتماعية وهو الاقتصاد ، فأولاه من العناية ما هو به جدير.

وإذا كانت النظرية الاقتصادية الأولى هي البحث عن المال وطريقة تحصيله ، فإن الاسلام قد اهتم بهذه المسألة كل الاهتمام ، ولم يسوغ للمسلم أن يعيش كلا على الناس ، فحرم عليه السؤال ولم يجزه له إلا في أشد حالات الاضطرار التي تبيح له أكل الميتة ، وبين له الطريق الطبيعي لتحصيل المال والاثراء ، وهو العمل والسعي بجد واجتهاد ، وحضه على ذلك ورغبه فيه بالثواب الاخروي الذي تتشوق له النفوس في دار الجزاء.

فما روي عن الرسول ﷺ في هذا الصدد قوله : «لأن يأخذ أحدكم حبلاً ، فيحتطب فيه ، فيبيع فيأكل ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» وكان عمر رضي الله عنه يقول : «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

ثم انه عمد إلى أبواب الاقتصاد المعروفة فصنفها تصنيفاً لا يقل عن أحسن الآراء المدنية في كل باب فوضع للتجارة أحكاماً وللصناعة أصولاً وللفلاحة قوانين ، ولكل وجه من وجوه الكسب والتدبير حتَّى التعدين واستغلال المناجم ضابطاً يخصه وقضية ذلك :

أولا — الاذن في الأخذ بأسباب المنافع كلها ومباشرة جميع الأعمال التي تعود على الأمة بالخير الكثير والربح العظيم.

ثانياً — تنظيم طرق المعاملات وضبطها بزمام الصالح العام حتَّى لا تطغى الأثرة ولا تظهر الروح الاستغلالية ، فيؤدي ذلك إلى ما لا تحمد عقباه من الرأسمالية المستغلة لجهود العاملين أو الشيوعية المتعدية على حقوق المتمولين ، ولهذا كان مدار أحكام الشريعة الإسلامية على حديث : «لا ضرر ولا ضرار».

ولما كان الذي يهمنا هنا هو بيان نظر الإسلام في أمور الاقتصاد والمال من الوجهة العمومية ، فانا سوف لا ندخل في تفاصيل هذه المسائل . وإنما نورد بعض النصوص الشرعية في الحث على هذه الأعمال والإكبار من شأنها وبيان أنها من مقاصد الشرع الشريف ، ومطالب الدين الإسلامي الحنيف . فمن ذلك قوله تعالى في الحض على السعي والكسب من وجهه الحلال والانفاق وعدم التقتير على النفس : «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غني حميد الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم».

وقوله في الحض على التجارة بالخصوص : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ،» أي اذكروه بالفكر والقلب لا باللسان فقط لتشاهدوه وتراقبوه في أعمالكم ، فلا تغشوا أحداً ولا تضروه ، ولا تتعاملوا بربى ولا بمحرم مطلقاً .

ومما جاء في الأحاديث النبوية في التجارة قوله ﷺ : «التاجر الامين الصدوق مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين». وقال عمر في شأن الاحتراف : «إني لأرى الرجل فيعجبني فاسأل هل له حرفة؟ فإذا قيل لا! سقط من عيني». وقد قام في ذهن بعض الناس أن التوسع في المكاسب والثروة الطائلة وحب المال ليس من الدين في شيء ، وانه مخالف للتقوى ، وان الاسلام جاء بمدح التقلل من الدنيا والزهد فيها وعدم الحرص عليها ، والحقيقة أن الدين الإسلامي الحنيف أهدر القيم المادية كلها إذا لم تلابسها قيم روحية تجعل لها قدراً واعتباراً عند الله وعند الناس ، فالمال إذا لم يحصله الإنسان من وجهه الحلال لا قيمة له ولا فائدة منه لصاحبه ، لأن نتيجته وهي المواساة به والاحسان سبقتها المضارة والاساءة ، والمال وان كسبه صاحبه من طريق مشروع إذا لم يؤد حق الله فيه ويعامل به أبناء جنسه ، كان ضرره أعظم من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، وفي كلتا الحالتين يكون التقلل من الدنيا ونفض اليد منها أولى وأفضل من التكثر والحرص الذي يعود على صاحبه بالوبال والخسران .

وهذا القول لا ينكره أحد من المسلمين وغيرهم من المتمدينين وسواهم ، وعليه يخرج ما جاء في الشرع الإسلامي من الأقوال في ذم جمع المال ومدح الزهد في الدنيا .

وفي القرآن العزيز: «زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب». فما زينه الله للناس وحببه إليهم لا حرج فيه ولا إثم، وإنما الإثم في تضييع الحقوق الواجبة عليه وعدم القيام بما أمر الله به فيه وهو ما يشعر به قوله: «والله عنده حسن المآب».

ويكفي أن العبارة التي عبر بها القرآن في هذا الصدد هي نفس العبارة التي عبر بها في شأن الإيمان، منة الله على المؤمنين حيث قال: «ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان».

ومعلوم أن النبي ﷺ احترف التجارة قبل البعثة وسافر الى الشام في مال خديجة رضي الله عنها وباع وأربح، وان كبار الصحابة كذلك كانوا يتجرون ويتأثلون الأموال والأصول والعقارات، ومنهم من عدت تركته بالملايين — ملايين ذلك العصر — التي لها من القيمة بحسب قوة الشراء ما للملايير اليوم، وما قدح ذلك في إيمانهم ولا اعتبره أحد من المخالفات لأوامر الشرع المطاع، لأنهم كانوا من القائمين بحق الله وحق العباد؛ فما تركوا ديناً لأجل دنيا، ولا فرطوا في دنيا أباحها الدين، فلنقتد بهم فهم سلفنا الصالح وأئمتنا في كل خير والله سبحانه وتعالى الموفق.



عطلة اليوم الآخر من شعبان

أمر جلالة الملك ، نصره الله ، بتعطيل جميع الادارات والمدارس ومصالح البريد في يوم السبت 29 شعبان احتفاء بمقدم رمضان المعظم واستعداداً لمراقبة هلاله ، كما كانت العادة في المغرب إلى الأمس القريب ، وكما هي العادة في البلاد الاسلامية الأخرى إلى يومنا هذا ؛ فكان هذا الأمر الكريم برداً وسلاماً على قلوب المؤمنين الذين كثيراً ما تألموا لما يرونه من التهاون بأمر الدين ، وطمس المعالم التي يظهر منها أن البلد بلد إسلامي ما يزال أهله يتمسكون بعقيدتهم ويحرصون على أداء شعائرهم الدينية بكل خشوع وايمان .

وتعطيل يوم التاسع والعشرين مع احتمال عدم رؤية الهلال في ذلك اليوم ، هو تأكيد للفكرة ، وتصميم على تنفيذها لأن اليوم كان يوم السبت ، ويوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية الرسمية — مع الأسف — في هذه البلاد العربية الإسلامية ؛ فلو أخرت العطلة الى يوم الثلاثين في هذه الحالة ، لما كان لها مظهر خاص ، ولا أثرت التأثير المشهود في نفوس الكبار والصغار على السواء . على أنه لا مندوحة من جعل العطلة يوم التاسع والعشرين ولو لم يكن يوم السبت ، ما دام أمر الهلال مغيباً عنا ؛ فالقصد هو مراقبته والاستعداد لدخول الشهر الكريم . وتوقفت بعض الادارات والمدارس حتَّى بلغها الأمر من مراجعها الخاصة ، ولست أريد أن أنتقد عليها ، وإنما أريد أن أستخلص من ذلك عبرة للذين يهرفون بما لا يعرفون ، وهي أنه كثيراً ما كان يأتي الخبر برؤية الهلال في ناحية ما ، فتتوقف السلطات الشرعية عن الاذن بالصوم أو الافطار حتى يثبت لديها ، ولكن المتساهلين ينتقدون عليها هذا التثبت ويصفونها بالتحجر ؛ فهذا التحجر أيها السادة هو من قبيل تحجر تلك المؤسسات وتثبتها في عدم التعطيل حتَّى يأتيها الأمر ممن تخضع له مباشرة من المراجع العليا .. هذا مع مراعاة الفرق بين أمر الصيام أو الافطار وأمر العطلة ..

ومن ذكريات كاتب هذه السطور أنه ولد في مثل هذا اليوم عشية ، وكان يوم السبت أيضاً ، إلا أنه يوم الثلاثين ، وكان الناس يستقبلون شهر رمضان وهلاله بما لا مزيد عليه من الفرح والسرور ، فالرجال يتبارون في اطلاق البارود ، والصبيان يشعلون الحراقيات ، والنساء يزغردن فوق سطوح المنازل ، ويضربن الدفوف والمزاهر ، فضلاً عن نزهات شعبانة التي كان الطلبة وغيرهم يقيمونها في كل مكان . ولذلك لما أخبر جد الكاتب بولادة حفيده قال فيما تتحدث به الأسرة : ان هذا الولد جاء «يشعبن» .

وبعد فما أقصده بالتعليق على عطلة اليوم الآخر من شعبان هو القول بأن هذا الدين ، وكل دين كان قبله ، والمبادىء السامية ، والمثل العليا ، وجميع القيم الانسانية ، انما تتمهد وتتوطد ، وينتشر أمرها ويعلو شأنها بالحماية والنصرة وتأييد الدولة ، وهو معنَى القول المأثور : «إن ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن». فلو تركت هذه المعاني وشأنها من غير أن ترعاها السلطات الحكومية حق رعايتها ، لما خفقت للدين راية ، ولما ارتفع للفضيلة ذكر ، لأن النفس امارة بالسوء ، والشر يعدي كما يعدي الجرب . فالأمة لسلامتها من الآفات الاجتماعية ، لابد لها من وازع قوي يكبح جماح المبطلين ، ويضرب على أيدي العابثين ، والا استشرى الفساد ، وهلكت البلاد والعباد ، وأظن أن هذا هو المقصود من حديث «السلطان ظل الله في الأرض» ، لا ما ألصقه به المتنطعون من معنًى تيوقراطي توسلا إلى مهاجمة حكومة الاسلام من هذا السبيل . وقد فهم المسلمون دائماً أن مهمة الخليفة هي السهر على حفظ الكيان الاجتماعي والسياسي للأمة ، وعبر الشاعر قديماً عن ذلك أصدق تعبير في هذا البيت الحكيم الذي جرى مجرى الأمثال :

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل   وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

لذلك كنا وما زلنا نرى أن الاعتماد على وسيلة الوعظ والارشاد وحدها في إصلاح المجتمع لا يكفي ، وانه لابد من سن قوانين لحماية المجتمع من عوامل الفساد ، وإنزال العقوبات الصارمة بمن تسول له نفسه مخالفة تلك القوانين ، مع إسناد الرقابة في ذلك إلى أناس من ذوي المروءة والنزاهة لئلا يقع غض الطرف عمن يستحق العقاب ، والحاق الضرر بمن لا ذنب له ، والا فإن وعظ الوعاظ لم ينقطع في يوم من الأيام ، والخطباء الجمعيون بحّت أصواتهم من الإرشاد إلى طريق الرشاد ، وكم كتب الكتاب المصلحون معلمين ناصحين ، وموجة الإلحاد مع ذلك

لا تزيد إلا طغياناً ، وعفن الأخلاق لا يفتأ يسمم المجتمع يوماً ما بعد يوم فيقضي على الطهر والعفاف ويلطخ الذمم والأعراض . ولا غرابة فإن المسؤولين عن إشاعة الفساد ، والممكنين لزحف المبادىء الهدامة على البلاد ، هم ممن لا يترددون على المساجد ، حتَّى يسمعوا دروس الوعظ والإشاد ، أو خطب الجمعة ، بل ان معظمهم ولا أقول جميعهم لم يدخل مسجداً قط ، وهاهو ذا العدد العديد منهم ، ومن ذوي الزعامة فيهم ، يقسم الناس أنهم لم يروه قط في مسجد ، لا في مناسبة خاصة ، ولا في عيد ولا جمعة ، بله سائر الأيام فلمن الوعظ اذن؟ وأما ما يكتب في الصحف من هذا القبيل فإن هؤلاء القوم لا يلتفتون إليه ، ولا يمرون به ولو مر الكرام ، وإنما يعتبرونه تخريفا ورجعية ، ويستهزئون به وبكتابه سراً وعلناً ، حتَّى صارت كلمتا الوعظ والإرشاد عندهم مما يتندر به على كل دعوة إصلاحية وأدب هادف لأن غير الاباحية والفجور لا يجد إلى نفوسهم مساغاً ...

فمن أجل ذلك وجب حماية جمهور المسلمين من أذى هذه الطائفة ، وتنحيتها عن مراكز القيادة ، وعدم إناطة أية مسؤولية بمن كان على غرارها في عدم احترام شعور الأمة وشعائرها الدينية ، اعتباراً لحق السواد الأعظم في تسيير أمره حسب ارادته وما يعتقده صواباً كما تقضي به — على الأقل — أصول الديموقراطية التي نتبجح بها في كل مناسبة ، ان لم يجر الأمر على ما تقضي به أصول الشريعة السمحة أحياها الله .

ولسنا نطمع في حسم مادة الشر ولا في استئصال جرثومة الفساد ، فإن هذه غاية لم تتحقق حتَّى في زمن النبيئين والمرسلين صلوات الله عليهم ، ولكننا نريد أن نوقف حملة الاستهتار بالمقدسات ، وان يقمع التجاهر بالسكر والفسق ، ويمنع المسلمون من المبيعات الحرام ، وأن تحترم الشعارات الدينية باحترام الشرع لها والناس فلا يقال في السكير أنه لم يؤذ أحداً ، فلذلك لا يتعرض له ، ولا في المسلم يبيع الخمر والخنزير انه ينمي اقتصاد البلاد ولا تعطل المدرسة في (الأسنسيون) وتشتغل يوم (المعراج)[1] الخ ...

(1) ان الاسراء والمعراج مما اتفقت عليه الأمة الاسلامية وان اختلفت في تاريخه ، ولكن المسلمين اليوم مجتمعون على اعتماد 27 رجب لتاريخه ، ناهيك أن مؤتمراً اسلامياً ينعقد في القدس كل سنة من أجل فلسطين في هذا اليوم .

هذا ما نريد أو بعض ما نريد ، ولسنا ببالغيه بمجرد الكلام ، ولو تكلمنا الليل والنهار ، وإنما يجب أن تتضافر الجهود من دعاة الدين والفضيلة ، ورجال الحكم والإدارة ، فتوضع خطط الاصلاح وقوانين التطهير ، ويقع السهر على تنفيذها بقوة وعزيمة ، حتَّى يهتدي الضال ويرشد الغوي ، وتطمئن نفوس المؤمنين على مصيرهم ومصير أولادهم من بعدهم .

ولسنا في حاجة إلى اعطاء مثال على نجاح هذه الطريقة المضمون ، ما دام مثال عطلة اليوم الآخر من شعبان قائماً أمام أعيننا ، فلقد كان الأمر الصادر بها من جلالة الملك أعظم من ألف خطبة وألف درس وألف مقال يكتب في الصحف والمجلات ، ولقد جاء جوابا مسكتاً لكل متنطع ، ولقد أوقف سيل التعليقات المغرضة عند حده ، وما أحسن الأشياء تجيء في ابانها ، وفي مثل هذا المقام يقال : «قطعت جهيزة قول كل خطيب ».

إنها تظاهرة مسلكية تدل على غيرة عظيمة على الدين ، وتضامن مع الشعب المسلم الذي لا يقبل المساومة في عقائده وشعائر دينه بأي عرض كان «تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة» وإنها لفاتحة عهد جديد بحول الله يعلق فيه المخلصون أمالاً كباراً على العاهل الكريم في تجديد شباب الحكومة الاسلامية الآخذة بكل أسباب التقدم العصري والمحافظة في نفس الوقت على شعاراتها وشعائرها المقدسة .



الذين سيوضع لهم الدستور

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فاستدعى نخبة من رجال العلم والفقه والسياسة ، وأناط بهم مهمة وضع دستور البلاد الذي يدعم كيان الدولة ، وينظم شؤون الحكومة ، ويحدد حقوق الشعب الأساسية ، والمهمة عظيمة جداً . فإن الفكر العام قد شغل بها غاية الشغل ، ولم تفتأ الصحافة تتناولها بالكتابة والتعليق منذ نشر نبأ هذا الاستدعاء ، وقد كان في الكتاب والمعلقين من عرف قدره فتناول الموضوع بما يلقي بعض الضوء على المبادىء والأصول التي يجب أن ينبني عليها الدستور ، ومنهم من ركب رأسه فصار يملي أفكاره الخاصة ، بل ارادته على الناس ، كأنما الدستور له وحده دون سائر المتساكنين في هذا الوطن .

والذي يجب أن يعرفه كل واحد هو أن المغرب قطر يسكنه اثنا عشر مليوناً من الناس ، كلهم يدينون بالإسلام ويقدسون العروبة ويتمسكون بمغربيتهم أعظم تمسك . وهذا باستثناء أقلية صغيرة من اليهود ، كانت قبل هجرة الكثير منهم إلى فلسطين المغتصبة تعد بمائتي ألف نسمة ، وبعض ذوي الأفكار المضادة لهذه المبادىء وهم مهما بالغنا في تعدادهم تصديقاً لدعواهم فلن يتجاوزوا بضع مئات .

أما إسلام المغاربة وإيمانهم القوي ، فلا نحتاج إلى إقامة الأدلة العديدة عليه من الماضي ؛ وتاريخهم في خدمة هذا الدين الحنيف معروف ؛ وإنما ننظر إلى واقعهم الحالي فنجد أنهم من أعظم شعوب الاسلام تمسكاً به ، وغيرة عليه ، ودفاعاً عنه ، وقياماً بشعائره ، وخضوعاً لشرائعه ؛ ويكفي المرء أن يدخل الى المساجد العديدة التي لا تخلو منها قرية ولا بلدة ، ليرى أفواج المصلين في الأوقات الخمسة تكاد تغص بهم هذه المساجد . ويرى الذين تفوتهم الصلاة في هذه الأوقات لمانع من شغل وغيره يتعاقبون على المسجد ، ويؤدون ما عليهم من فرائض فيما بين ذلك . أما صلاة يوم الجمعة فان المساجد لا تكفي بالفعل لاستيعاب المصلين لها مهما اتسعت وكثرت ، ولذلك فإن الجماهير الغفيرة من المؤمنين تصليها في الساحات والرحاب المتصلة

بالمسجد على مرأى ومسمع من المارة ، ولا تتركها بحال لأنها تعلم أن الجماعة فيها واجبة ..وبدافع هذا الشعور الديني القوي يبني المغاربة كل عام في مختلف المدن والقرى عشرات المساجد من مالهم الخاص ، ولا سيما في الأحياء الجديدة التي لا يكون فيها مسجد للأوقاف ، ويقومون بتكاليف تسيير هذه المساجد مدة تقصر أو تطول حتَّى تتسلمها منهم الأوقاف.

ومثل الصلاة وهي العمود الفقاري للدين ، الزكاة والصيام والحج ، فإن المغاربة يؤدون هذه الواجبات كلها ولا يتهاونون بها مطلقاً . أما الزكاة وهي أثقلها على النفس لتعلقها بالمال ، فإن من لا يخرجها من المغاربة أقلية ضئيلة . نعم الكثير منها يذهب في غير محله . ولو نظم أمرها وتكلف بها من يقبضها من الناس ويصرفها في مصارفها الحقيقية لما امتنع من أدائها أحد . وأما الصيام فلا يخفَى ما للمغاربة به من عظيم الاحتفال ، واعتبارهم شهره عيداً من الأعياد ، وأنه لم يكن أحد منهم يخل به حتَّى طغت علينا هذه الحرية الموبوءة التي نرجو أن يكون الدستور وقاية لنا من عقابيلها الفتاكة . وأما الحج فبالرغم من أتعابه ونفقاته الباهظة ، حتَّى قال بعض العلماء انه ساقط عن أهل المغرب ، فإن حجاج المغاربة كل عام يعدون بالآلاف ، ولولا العراقيل التي توضع في سبيله ، واستغلال شركات النقل لِضعفة الحجاج ، لكان عددهم أضعافاً مضاعفة عما بلغ اليه لحد الآن.

هذا بالنسبة إلى أركان الدين العظمَى ، وأما السنن والفضائل وأدب السلوك العام ، فان المغاربة ما برحوا يزنون جميع أعمالهم بميزان الشرع الشريف ، ويحرصون أشد الحرص على عدم مخالفته في قول أو فعل؛ ومن ثم نرى هذه الثورة التي تضطرم بها جوانحهم على ما شاع في العهد الجديد من الفسق والفجور ، ومعاقرة الخمور ، والاستهانة بأمور الدين في كثير من المظاهر والأعمال ، لما أن القوانين العصرية لا تتعرض لذلك بنفي ولا اثبات ، والشرع الذي يعاقب على ذلك قد عطل ، أو لم يبق بيد أهله نفوذ . وإلى هذا فان المجتمع المغربي لا يزال في عوائده وتقاليده اسلامياً صميماً ، إلا عند بعض المنحرفين الذين أشرنا إليهم فيما قبل .

على أن أعظم حجة على تديُّن المغاربة ، وتمسكهم بالعقيدة الإسلامية ، هو ما نراه ونسمعه من تملق بعض الساسة للعاطفة الدينية عند الشعب المغربي وتظاهرهم باحترام شعائر الإسلام ، وان كانوا في باطنهم يستخفون بها رغبة في تأييد الجماهير الشعبية لهم ، وكسب أكثر ما يمكن من الأنصار .

وأما تعلق المغاربة بالعروبة وانتماؤهم إلى القومية العربية ، فلا أدل عليه من هذه الصيحات المتوالية من جميع الطبقات ، بوجوب تعريب التعليم وتعريب الإدارة على العموم ، ومن تأييد فكرة المغرب العربي الذي هو الجناح الأيسر للجامعة العربية ، ومن الحماس المنقطع النظير الذي قابل به الشعب المغربي الانضمام إلى هذه المؤسسة العتيدة بعد ما تشوف إليه منذ فجر الاستقلال ، ومما يبديه في كل مناسبة من التضامن مع الشعوب العربية لنصرة قضاياها المختلفة ؛ ولا سيما قضية فلسطين الشهيدة ، واستعداده للتضحية بالنفس والنفيس في سبيل تحريرها وإنقاذها من الاستعمار الصهيوني الغاشم ، إلى غير ذلك مما هو خبر بمعلوم .

واما تشبثهم بمغربيتهم وما لها من خصائص ومقومات ، فيظهر في قوة عاطفتهم الوطنية ، ومحافظتهم على عوائدهم الاجتماعية ، وفي نظام بيوتهم ومعيشتهم وما إلى ذلك .

نعم هذه هي المثل العليا التي من أجلها يعيش كل مغربي ، وعلى هداها يسير ، وفي سبيلها يعمل ؛ ثم هي من حيث حرصه عليها وتعلقه بها وتقديسه لها على هذا الترتيب الذي ذكرت به ؛ فالمغربية تلي العربية ، وإذا تعارضتا فرضاً وتقديراً فهو عربي فكراً وشعوراً ، وأنف الوطنية الاقليمية الضيقة راغم ، تماما كما لو تعارضت العربية — وهي لا تتعارض — مع الإسلام ، فهو مستعد للتضحية بها والتنكر لها احتفاظاً بعقيدته ، وتمسكا بدينه الذي لا يبغي به بديلاً . فالذي يريد أن يسوس المغرب ويحظى بثقة المغاربة ، عليه أن يرعى هذه المبادىء الثلاثة في كل عمل يعمله ، وكل سياسة ينتهجها ، وإلا فإنه سيبوء بالفشل الذريع والخذلان الشنيع .

ان أول انطلاقة تحررية جدية باجماع الآراء ، هي التي انبعثت من خطاب طنجة التاريخي سنة 1947 وهي التي أعلن فيها جلالة الملك أن اتجاه المغرب الطبيعي نحو الشرق الإسلامي والبلاد العربية . فالذين يقولون اليوم إن المغرب من الغرب أو انه واسطة بين الشرق والغرب ، إنما يحاولون فصم العرى المتينة التي بينه وبين إخوانه المسلمين والعرب تمهيداً للانزلاق به نحو التبعية الغربية ، والانسلاخ من قوميته العربية الاسلامية . ولو كان من الشعوب العربية من يصح له أن يدعي هذه الدعوى لكانت مصر التي سبقتنا للاتصال بالحضارة الغربية بقرن ونصف ، والتي تعد اليوم من علمائها وخبرائها وفنييها عشرات المآت إن لم نقل الآلاف ، على أن خديويّها الذي لم يفهم نفسية شعبه ، وقال ان بلادي قطعة من أوربا قضى بقية

حياته منفياً في أوربا ...فكيف نحن ببضع (ليسانسات) في الحقوق الفرنسية من غير عربية ، أو ببعض أفكار (شيوعية) يخلب بها السياسيون الفاشلون عقول البسطاء من الناس ، نكون واسطة بين الشرق والغرب ، والشرق قد اتصل قبلنا ولم ينتظر وساطتنا ، والغرب يرى تنكرنا لتراثنا الفكري والحضاري الضخم فيتأهب لالتهامنا حين لايبقَى لنا رصيد روحي ولا خلقي يثير حفاظنا ويبعث نخوتنا؟.

إننا اذن مقبلون على معركة حاسمة بالنسبة لمستقبل المغرب ، فإما أن يكون عملنا عملاً بناء هادفاً يرتكز على أسس متينة من مقدساتنا وواقعنا الاجتماعي ، وحياتنا البيتية المبنية على النظافة والطهارة وعدم الاثارة ، وحينئذ فان المغرب سيسير في طريقه نحو النمو والتقدم والازدهار بخطى ثابتة وسريعة وبتعاون جميع العناصر والطبقات من المواطنين والمواطنات ، وإما ان ننحرف ونميل ونترك الطريق السوي والنهج القويم فنضحي بالاثني عشر مليوناً من أجل خاطر الأقلية التي لا تكون حتَّى اثنين في المائة فقط ، من أجل ان يقال عنا أننا تقدميون متحررون ، كما قالت جريدة اسبانيا الطنجية يوم استقبلت أول فوج من المسيحيين الذين اكتسبوا الجنسية المغربية في حين أن المسلمين الذين يولدون فوق التراب الاسباني لا يسمح لهم القانون إلا برعوية منقوصة[1] ...وفي هذه الحال فإن دستور المغرب سيكون نسخة لا غير من دساتير الدول اللادينية ، ولا سيما القدوة العظمَى فرنسا (المطروبول) ، وفي هذه الحال سنبقَى وحدنا وسنخسر الشعب بأجمعه ، وان كنا سنكسب تصفيق الخوارج والمتملقين .

إن المغاربة الذين نحن في خدمتهم عرب مسلمون ، دستورهم الخالد هو القرآن ، وقانونهم العام هو الشرع الإسلامي ؛ فعلى هذا الأساس يجب أن يوضع دستور الدولة التي تحكمهم ، ومن هذين المنبعين الثريين يجب أن يستمد ذلك الدستور مبادئه وأصوله ، وهذا ان لم يكن إيماناً بالقرآن ولا بالشرع الاسلامي فليكن إيماناً بالديموقراطية التي هي حكم الشعب من غير تحريف لها ولا تزييف ، وبموجب هذه الديموقراطية التي يتبجح بها الجميع ، لا يكون الحكم الا للاكثرية ، وأي أكثرية هذه؟ إنها الاكثرية الساحقة على حد التعبير المقتبس من اللغات الديموقراطية ..

---

(1) وقانون لانديجينا في الجزائر هو من قبيل هذه الرعَوية عند فرنسا .

وعلى كل حال ، فنحن لا نطمع في ديموقراطية أكثر من ديموقراطية الانجليز الذين يقسم رئيس دولتهم بمقتضى دستورهم على حماية الكنيسة الإنجيلية ، والمذهب البروتستانتي ، من غير ملاحظة لما يضمه الشعب البريطاني من ملايين الكاثوليك وغيرهم من اتباع الديانات الأخرى . وفي نص الدستور على ضمان حقوق الأقليات مرضاة للجميع وفي نصه على المساواة القانونية بين جميع السكان نفي لكل حيف يحتمل وقوعه على الأقليات .. وما عدا ذلك فإنما هو استخذاء من الأكثرية أو أنانية من الأقلية ، وكلا الوصفين لا يليقان بالموطن الحر ، والتوفيق من الله .



الفهـرس

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء